

سورة يونس

معانى الكلمات :

الر : إشارة إلى بلاغة القرآن وإعجازه
وتحديه للعرب .

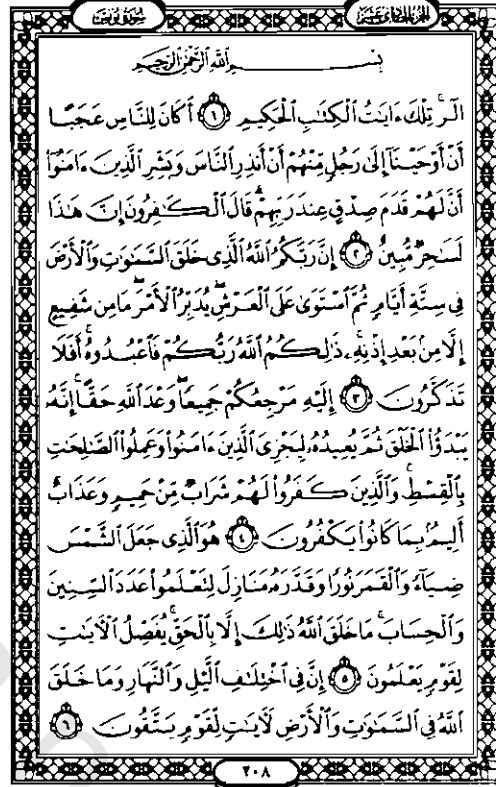
قدم صدق : منزلة رفيعة .

استوى على العرش : استواء يليق به
سبحانه .

بالقسط : بالعدل .

حميم : ماء قد بلغ غاية الحرارة .

قدره منازل : صير القمر ذا منازل يسير
فيها .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعتقد بتقرير عقيدة الوحي بشهادة الكتاب الموحى به .

٢ - أن نعلم أنه لا شفاعاة يوم القيامة إلا من بعد أن يأذن الله .

٣ - أن نتدبر في ملكوت الله ونشكره على إبداعه في خلقه .

المحتوى التربوى :

بدأت هذه السورة بثلاثة حروف مقطعة كما بدأت سور: البقرة وآل عمران والأعراف ، وتمثل مبتدأ خبره : ﴿ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴾ ، ثم يأخذ السياق في عرض عده أمور تتجلى فيها الحكمة التى أشير إليها في وصف الكتاب . من الوحي إلى الرسول ﷺ ؛ لينذر الناس ويبشر المؤمنين والرد على المعارضين أن يوحى الله إلى بشر ، إلى خلق السموات والأرض وتدبير الأمر فيهما ، إلى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً ، وتقدير منازل القمر ليعلموا عدد السنين والحساب ، إلى اختلاف الليل والنهار وما فيه من حكمة وتدبير .

والآيات فى بدايتها تقرر صفة الله الحكيم الذى يخاطب البشر بما يناسب طبائع البشر ، ويعرض فى هذه السورة جوانب منها صادقة باقية نجد مصداقها فى كل جيل . والحكيم الذى ينبه الغافلين إلى تدبر آيات الله فى صفحة الكون وتضاعفه . فى السماء والأرض وفى الشمس والقمر ، وفى الليل والنهار ، وفى مصارع القرون الأولى ، وفى قصص الرسل فيهم .. وفى دلائل القدرة الكامنة والظاهرة فى هذا الوجود .

ويستنكر الله فى الآيات هذا العجب الذى تلقى به الناس حقيقة الوحي منذ كانت الرسل ، فلقد كان السؤال الدائم الذى قوبل به كل رسول : أبعث الله بشراً رسولاً ؟ ومبعث هذا السؤال هو عدم إدراك قيمة « الإنسان » عدم إدراك الناس أنفسهم لقيمة « الإنسان » الذى يتمثل فيهم . فهم يستكثرون على بشر أن يكون رسولاً لله ، وأن يتصل الله به - عن طريق الوحي - فيكلفه هداية الناس ، إنهم ينتظرون أن يرسل الله ملكاً أو خلقاً آخر أعلى رتبة من الإنسان عند الله غير ناظرين إلى تكريم الله لهذا المخلوق ، ومن تكريمه أن يكون أهلاً لحمل رسالته ؛ وأن يختار من بين أفراده من يتصل بالله هذا الاتصال الخاص .

والهدف من هذا الوحي - أو الاتصال : إنذار الناس بعاقبة المخالفة ، وتبشير المؤمنين بعقبى الطاعة ، وهذا يتضمن بيان التكاليف الواجبة الاتباع وبيان النواهى الواجبة الاجتناب . فهذا هو الإنذار والتبشير ومقتضياتهما على وجه الإجمال .

والإنذار للناس جميعاً . فكل الناس فى حاجة إلى التبليغ والبيان والتحذير : والبشرى للذين آمنوا وحدهم . وهو يشرهم هنا بالطمأنينة والثبات والاستقرار . مع وضوح قضية الوحي على هذا النحو ، فإن الكافرين يستقبلونها كما لو كانت أمراً عجبياً ﴿ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجْرٌ مُّبينٌ ﴾ .

ولقد كان يختلط عندهم الوحي بالسحر ؛ لاختلاط الدين بالسحر فى الوثنيات كلها ؛ ولم يكن قد وضع لهم ما يتضح للمسلم حين يدرك حقيقة دين الله ؛ فينجو من هذه الوثنيات وأوهامها وأساطيرها .

ثم يناقش السياق القضية الأساسية الكبرى فى العقيدة . قضية الربوبية ويلمسها بمنطقها الفطرى البسيط المباشر ؛ فالله هو الذى خلق السموات والأرض وما فيهن ، وجعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل ، وقدر اختلاف الليل والنهار .. هذه الظواهر البارزة التى تلمس الحس ، وتوقظ القلب لو تفتح وتدبرها التدبر الواعى المدرك أن الله الذى خلق هذا ودبره هو الذى يليق أن يكون رباً يدين له البشر بالعبودية ولا يشركون به شيئاً من خلقه ..

أليست قضية منطقية حية واقعية ، لا تحتاج إلى كد ذهن ، ولا إلى بحث وراء الأقيسة الجدلية التى يعللها الذهن باردة جافة ، ولا تدفع القلب مرة ولا تستجيش الوجدان ؟ !

إن هذا الكون الهائل بسمواته وأرضه . شمس وقمره - ليله ونهاره ، وما فى السموات والأرض من خلق ومن أمم ومن سنن ومن نبات ومن طير ومن حيوان كلها تجري على تلك السنن .

وربكم الذى يستحق الربوبية والعبودية هو هذا الخالق الذى خلق السموات والأرض خلقهما فى تقدير وحكمة وتدبير ، والأمر كله له ، والحكم كله إليه . وما من شفعاء يقربون إلى الله زلفى ، وما من شفيع من خلقه إلا حيث يأذن له بالشفاعة ؛ وفقاً لتدبيره وتقديره ، واستحقاق الشفاعة بالإيمان والعمل الصالح .

ذلكم الله الخالق المدبر الحاكم الذى لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه ﴿ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ ﴾ الخلق بالربوبية ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ فهو الذى يستحق الدينونة له دون سواء .. ﴿ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ فالأمر من الثبوت والوضوح بحيث لا يحتاج إلا لمجرد التذكر لهذه الحقيقة المعروفة والعبادة هى العبودية ، والدينونة ، والاتباع والطاعة ، مع أفراد الله - سبحانه - بهذه الخصائص كلها ؛ لأنها من مقتضيات الاعتراف بالألوهية .

ويعرض الله مشاهد الإبداع فى الكون فى خلق الشمس والقمر مؤكداً أنه ما خلق كل هذا عبثاً ولا باطلاً ولا مصادفة عابرة ، وإنما خلقهما بالحق الثابت الراسخ ، وهذه المشاهد التى تعرض هنا فى حاجة إلى العلم لإدراك التدبير الكامن وراء المشاهد والمناظر ، إن فى ذلك كله آيات لقوم يتقون ، وتستشعر قلوبهم هذا الوجدان الخاص ، وجدان التقوى الذى يدع هذه القلوب تتأثر بمجالى القدرة ومظاهر الإبداع المعروض للأنظار والأسماع .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١- القرآن الكريم محكم واضح ، لا يدخله شك ، ولا كذب ولا تناقض .

٢- لا يشفع عند الله شافع يوم القيامة إلا بعد أن يأذن له الله فى الشفاعة .

٣- كل ما خلقه الله - سبحانه وتعالى - فى السموات والأرض فى غاية الإبداع والحكمة ، وعلينا أن نشغل أنفسنا بالتفكير فى هذه المخلوقات ؛ لتقوية إيماننا بعظمة الله وقدرته .

٤- بشرى لأهل الإيمان والعمل الصالح بما أعد لهم عند ربهم .

معانى الكلمات :

لا يرجون لقاءنا : لا يتوقعون لقاء الله .

دعواهم : دعاؤهم .

لقضى إليهم أجلهم : لأهلكوا وأبيدوا

في طغيانهم : في تجاوزهم الحد في الكفر .

يعمهمون : يعملون عن الرشد أو يتحIRON .

الضر : الجهد والبلاء والشدة .

دعانا لجنبه : استغاث بالله ليكشف عنه

الضر .

القرون : الأمم كقوم نوح وعاد .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعلم أن الإيمان بالله والرضا بقضائه يكون سبباً في دخول الجنة .
- ٢ - أن نحذر الاغترار بالحياة الدنيا أو الغفلة عن آيات الله - عز وجل .
- ٣ - أن نستشعر لطف الله وحلمه في إمهاله للناس ، وعدم عجلته بدعائنا الشر .

المحتوى التربوى :

بعد هذا العرض لصفحة من صفحات الكون المنظور وآيات الله فيه ، هناك من يرون كل هذا ، ثم لا يتوقعون لقاء الله ؛ ولا يدركون أن من مقتضيات هذا النظام المحكم أن تكون هناك آخرة ، وأن الدنيا ليست النهاية ؛ لأن البشرية لم تبلغ فيه كماها المنشود ، والذين يمرون بهذه الآيات كلها غافلون ، لا تحرك فيهم قلباً يتدبر ، ولا عقلاً يتفكر ، هؤلاء لن يسلكوا طريق الكمال البشرى ، ولن يصلوا إلى الجنة التى وُعد المتقون . إنما الجنة للذين آمنوا وعملوا الصالحات ، حين يفرغون من نصب الدنيا وصغارها إلى تسبيح الله وحده في رضاء مقيم .

وفى الناحية الأخرى الذين آمنوا وعملوا الصالحات . الذين آمنوا فأدركوا أن هناك ما هو أعلى من هذه الحياة الدنيا ، وعملوا الصالحات بمقتضى هذا الإيمان تحقيقاً لأمر الله بعمل الصالحات ، وانتظاراً للآخرة الطيبة وطريقها هو الصالحات ، هؤلاء يهديهم إلى الصالحات بسبب هذا الإيمان الذى يصل ما بينهم وبين الله ، ويفتح بصائرهم على استقامة الطريق ، ويهديهم إلى الخير بوحي من حساسية الضمير وتقواه هؤلاء يدخلون الجنة .

وفى الجنة أقصى ما يشغل أهلها هو تسبيح الله وحده أولاً وأخيراً ، يتخلل ذلك تحيات بينهم وبين أنفسهم وبين ملائكة الرحمن ، وينطلقون من هموم الحياة الدنيا وشواغلها ، ويرتفعون عن ضروراتها وحاجاتها ، ويرفرون فى آفاق الرضا والتسبيح والحمد والسلام .

بعد ذلك يواجه السياق القرآنى تحديهم لرسول الله ﷺ ، وطلبهم تعجيل العذاب الذى يتوعدهم به ، ببيان أن تأجيله إلى أجل مسمى هو حكمة من الله ورحمة . ويرسم لهم مشهدهم حين يصيبهم الضر فعلاً ، فتتعرض فطرتهم من الركام وتتجه إلى خالقها ، فإذا ارتفع الضر عاد المسرفون إلى ما كانوا فيه من غفلة ، ويذكرهم مصارع الغابرين الذين استخلفوا هم من بعدهم ؛ ويلوح لهم بمثل هذا المصير ، ويبين لهم أن الحياة الدنيا إنما هى للابتلاء وبعدها الجزاء .

والله - سبحانه - يقول لهم : إنه لو عجل لهم بالشىء الذى يتحدثون باستعجاله ، استعجالهم بالخير الذى يطلبونه.. لو استجاب الله لهم فى استعجالهم كله لقضى عليهم، وعجل بأجلهم! ولكنه يستبقيهم لما أجلهم له ، ثم يحذرهم من هذا الإمهال أن يغفلوا عما وراءه . فالذين لا يرجون لقاء سيظلمون فى عمايتهم يتخبطون ، حتى يأتهم الأجل المرسوم .

وبمناسبة الحديث عن استعجال الشر يعرض صورة بشرية للإنسان عندما يمسه الضر تكشف عن التناقض فى طبيعة هذا الإنسان الذى يستعجل الشر وهو يشفق من مس الضر ، فإذا كشف عنه عاد إلى ما كان فيه .

يقول صاحب الظلال : « إنها صورة مبدعة لنموذج بشرى مكرور ، وإن الإنسان ليظل مدفوعاً مع تيار الحياة ، بخطئى ويذنب ويظغى ويسرف ، والصحة موفورة ، والظروف مواتية . وليس - إلا من عصم الله ورحم - من يتذكر فى إبان قوته وقدرته أن هناك ضعفاً وأن هناك عجزاً . وساعات الرخاء تُنسى ، والإحساس بالغنى يُظغى ، ثم يمسه الضر فإذا هو جزوع هلوع ، وإذا هو كثير الدعاء ، عريض الرجاء ، ضيق بالشدة مستعجل للرخاء فإذا استجيب الدعاء وكشف الضر انطلق لا يعقب ولا يفكر ولا يتدبر ، انطلق إلى ما كان فيه من قبل من اندفاع واستهتار .

وبمثل هذه الطبيعة .. طبيعة التذكر فقط عند الضر ، حتى إذا ارتفع انطلق واستمر المسرفون في إسرافهم ، لا يحسون ما فيه من تجاوز للحدود ﴿كَذَلِكَ زَيْنَ الْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ .

فماذا كانت نهاية الإسراف في القرون الأولى ؟ لقد انتهى بهم الإسراف وهو الشرك - إلى الهلاك . وهذه مصارعهم كانوا يرون بقيتها في الجزيرة العربية في مساكن عاد وثمود وقرى قوم لوط ، وتلك القرون . جاءتهم رسلهم بالبينات كما جاءكم رسولكم ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ لأنهم لم يسلكوا طريق الإيمان ، وسلكوا طريق الطغيان فأبعدوا فيها ، فلم يعودوا مهئين للإيمان ، فلقوا جزاء المجرمين .

وإذا عرض عليهم نهاية المجرمين ، الذين جاءتهم رسلهم بالبينات فلم يؤمنوا ، فحق عليهم العذاب ، يذكرهم أنهم مستخلفون في مكان هؤلاء الغابرين ، وأنهم مبتلون بهذا الاستخلاف ممتحنون فيما استخلفوا فيه .

ويقول صاحب الظلال : « إن شعور الإنسان بأنه مبتلى وممتحن بأيامه التي يقضيها على الأرض ، وبكل شيء يملكه ، وبكل متاع يتاح له ، يمنحه مناعة ضد الاغترار والانخداع والغفلة ، ويعطيه وقاية من الاستغراق في متاع الحياة الدنيا ، ومن التكالب على هذا المتاع الذي هو مسؤول عنه وممتحن فيه » .
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - التحذير من الغفلة عن التفكير في مخلوقات الله وآياته الكونية ، والركون إلى متع الدنيا الفانية .

٢ - الإيمان سبب في الهداية يوم القيامة إلى الصراط المستقيم وإلى الجنة ونعيمها .

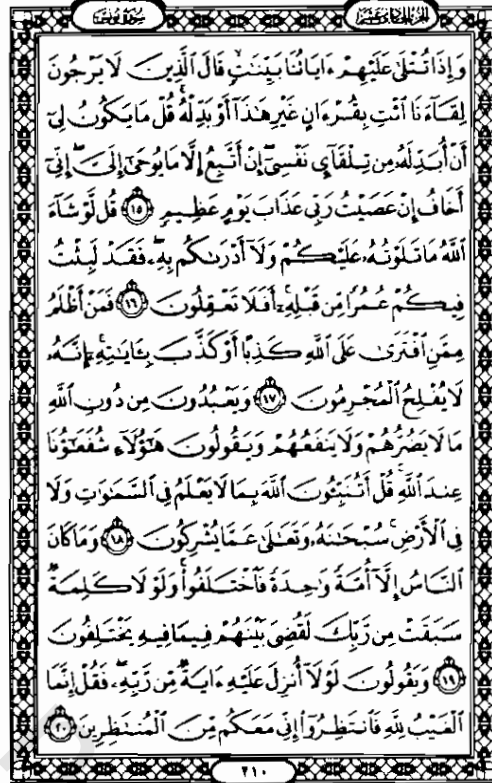
٣ - تحية أهل الجنة السلام ، ونطقهم دعاء وتسييح وحمد ؛ لما يرون من تزايد نعم الله - تعالى - عليهم .

٤ - حلم الله - تعالى - ولطفه بعباده ، ومن ذلك : أنه لا يستجيب دعاءهم بالشر على أنفسهم أو غيرهم ويمهل الظالمين منهم ، فلا يعجل لهم بالعقاب .

٥ - الإنسان الكافر يعرف الله عند الشدة ويدعوه ويضرع إليه ، فإذا أنجاه عاد إلى الكفر به كأن لم يكن يعرفه .

معانى الكلمات :

- لا أدراكم به : لا أعلمكم الله به بواسطتى .
لبثت فيكم : مكثت بينكم .
عمرأ : زمناً طويلاً .
لا يفلح المجرمون : لا يفوزون بمطلوب .
اختلفوا : تفرقوا شيعاً وأحزاباً .
لقضى بينهم : لعجل عقابهم فى الدنيا .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعتقد أن القرآن كلام الله ، الموحى إلى رسوله ﷺ ، المتعبد بتلاوته لا يتبدل ولا يتغير .
- ٢ - أن نحذر الكذب على الله أو تكذيب آياته ، فإن ذلك دأب المشركين .
- ٣ - أن نعتقد أن الغيب كله لله لا يطلع عليه أحداً إلا بإذنه لحكمة يعلمها .

المحتوى التربوى :

فى هذه الآيات يتناول السياق عرض نماذج من أعمال المشركين بعد استخلاصهم ، فلقد استخلفوا بعد القوم المجرمين . فماذا فعلوا ؟

طلبوا من الرسول ﷺ قرآناً غير الذى يتلوه ، وطلبوا تبديل بعض أجزائه ، وأغلب الظن أن أولئك الذين لا يتوقعون لقاء الله ؛ كانوا يحسون المسألة مسألة مهارة ، ويأخذونها مأخذ المباريات فى أسواق العرب فى الجاهلية . فما على محمد إلا أن يقبل التحدى ويؤلف قرآناً آخر ، أو يؤلف جزءاً مكان جزء ؟ !

ويقول صاحب الظلال : إن هذا القرآن دستور حياة شامل ، منسق بحيث يفى بمطالب هذه البشرية فى حياتها الفردية والجماعية ، ويهدها إلى طريق الكمال فى حياة الأرض بقدر ما تطيق ، ثم

إلى الحياة الأخرى فى نهاية المطاف ، ومن يدرك القرآن على حقيقته لا يخطر له أن يطلب سواء ، أو يطلب تبديل بعض أجزائه .

ويأمر الله رسوله ﷺ بالرد عليهم بأن الأمر ليس لعبة لآعب ولا مهارة شاعر ، إنما هو الدستور الشامل الصادر من مدبر الكون كله ، وخالق الإنسان وهو أعلم بما يصلحه ، فما يكون للرسول أن يبدله من تلقاء نفسه ، وإن هو إلا مبلغ متبع الوحى الذى يأتىه ، وكل تبديل فيه معصية وراءها عذاب يوم عظيم .

إنه وحى من الله ، وتبليغه لكم أمر من الله كذلك ، ولو شاء الله ألا أتولوه عليكم ما تلوته ، ولو شاء الله ألا يعلمكم به ما أعلمكم . فالأمر كله لله فى نزول هذا القرآن وفى تبليغه للناس . قل لهم هذا ، وقل لهم : إنك لبثت فيهم عمراً كاملاً من قبل الرسالة - أربعين سنة . فلم تحدثهم بشئ من هذا القرآن ؛ لأنك لم تكن تملكه ، لم يكن قد أوحى إليك ، ولو كان فى استطاعتك عمل مثله أو أجزاء منه فما الذى قعدك عمراً كاملاً ؛ ألا إنه الوحى الذى لا تملك من أمره شيئاً إلا البلاغ .

وقل لهم : ما كان لى أن أفترى على الله الكذب ، وأن أقول : إنه أوحى إلى الله إلا بالحق : فليس هنالك ما هو أشد ظلماً ممن يفترى على الله كذباً ، أو من يكذب بآيات الله . وأنا أنهاكم عن ثانية الجريمتين ، وهى التكذيب بآيات الله ، فلا أرتكب أولاهما ولا أكذب على الله .

فى قوله تعالى : ﴿ فَذَكَرْنَاكَ فِيكُمْ عُمْراً مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ يقول صاحب المنار : إن من عاش أربعين سنة لم يقرأ فيها كتاباً ، ولم يلحق من أحد علماً ، ولم يعرف تشريعاً ، ولم يبارس أساليب البيان من شعر ونثر لا يمكنه أن يأتى من تلقاء نفسه بمثل هذا القرآن المعجز . إنهم المشركون والضالون فى كل وقت لا يفتشون عن إثارة الشبه على المشركين .

ويستمر السياق يعرض ما فعلوه وما قالوه بعد استخلافهم فى الأرض ، غير هذا الهزل فى طلب قرآن جديد . فعبدوا الأوثان التى لا تقدر على نفع ولا ضرر ، ويدعون أنهم شفعاء عنده ، وهو إنباء بها ليس بمعلوم لله ، وإذا لم يكن معلوماً له - وهو العالم المحيط بجميع المعلومات - لم يكن موجوداً فكان خبراً ليس له مخبر عنه ، ويرد عليهم بأسلوب ساخر يلقى بهذا السخف الذى يلجون فيه . يعقبه التنزيه لله عما لا يليق بجلاله مما يدعون : ﴿ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

وقبل أن يمضى فى عرض ما قالوه وما فعلوه ، يعقب على هذا الشرك ، بأنه عارض ، والفطرة فى أصلها كانت على التوحيد ، ثم جدَّ الخلاف بعد حين ، وقد اقتضت مشيئة الله أن يمهلهم جميعاً إلى أجل يستوفونه ، وسبقت كلمته بذلك فنفذت لحكمة يريد بها : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَفُضِي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ .

وبعد هذا التعقيب يمضى فى الاستعراض لما يقول المستخلفون : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ أى من الآيات التى اقترحوها - تعنتاً وعناداً ، وكانوا لا يعتدّون بما أنزل عليه من الآيات العظام المتكاثرة ، التى لم ينزل على أحد من الأنبياء مثلها ، وكفى بالقرآن وحده آية باقية على وجه الدهر ، بديعة غريبة من الآيات ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ ﴾ أى هو مختص بعلم الغيب ، المستأثر به ، لا علم لى ولا لأحد به يعنى : أن الصارف عن إنزال الآيات المقترحة أمر مغيب لا يعلمه إلا هو .

ويقول صاحب الظلال بمناسبة قولهم : ﴿ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ﴾ : « فكل الآيات التى يحتويها هذا الكتاب العظيم المعجز لا تكفيهم . وكل آيات الله الماثلة فى تضاعيف الكون لا تكفيهم . وهم يقترحون خارقة كخوارق الرسل فى الأمم قبلهم غير مدركين طبيعة الرسالة المحمدية وطبيعة معجزتها ؛ فهى ليست معجزة وقتية تنتهى بمشاهد جيل ، إنما هى المعجزة الدائمة التى تخاطب القلب والعقل فى جيل بعد جيل .

ويوجه الله رسوله ﷺ أن يحيلهم على الله الذى يعلم ما فى غيبه ، ويقدر إن كان سيرز لهم خارقة أو لا يبرز : ﴿ فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ لِلَّهِ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ .

وهو جواب فى طيه الإمهال وفى طيه التهديد ، وفى طيه بعد ذلك بيان حدود العبودية فى جانب الألوهية ، فإن محمداً ﷺ وهو أعظم الأنبياء المرسلين ، لا يملك من أمر الغيب شيئاً فالغيب كله لله . ولا يملك من أمر الناس شيئاً ، فأمرهم موكل إلى الله ، وهكذا يتحدد مقام العبودية فى جانب مقام الألوهية ، ويخط خطاً بارزاً فاصلاً بين الحقيقتين لا شبهة بعده ولا ريبه . ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الرسول ﷺ متبع لما يؤحى إليه من ربه ، لا يغير ولا يبدل من عند نفسه شيئاً ، ولم يكن له قبل نزول الوحي علم بها فى هذا الكتاب .

٢ - لا يمكن أن يكون القرآن الكريم من كلام البشر ؛ لأنه كتاب عظيم اشتمل على نفائس علم الأصول ، ودقائق علم الأحكام ، ولطائف علم الأخلاق ، وأسرار قصص الأولين ، وعجز عن معارضته العلماء ، والفصحاء والبلغاء ، وأخبر بها فى النفوس وما يحدث فى المستقبل وغير ذلك من أوجه الإعجاز المختلفة .

٣ - لا أحد أظلم من رجلين رجل يكذب على الله - تعالى - وآخر يكذب بآيات الله تعالى .

٤ - إبطال دعوى المشركين أن أهنتهم تشفع لهم عند الله يوم القيامة .

٥ - الغيب كله لله فلا أحد يعلم الغيب إلا الله ومن علّمه الله شيئاً منه ، وهذا خاص بالرسل لإقامة الحجة على أممهم .

معانى الكلمات :

- ضراء مستهم : مصيبة أصابتهم .
 لهم مكر : دفع وطعن واستهزاء .
 الله أسرع مكرًا : الله أسرع جزاءً وعقوبة .
 ييغون : يُفسدون .
 زخرفها : نضارتها وبهجتها .
 حصيدًا : كالنبات المحصود بالمناجل .
 لم تغن : لم تمكث زروعها .
 دار السلام : الجنة .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - بيان ضعف الإنسان وفقره إلى الله - عز وجل - وحاجته إليه في حفظ حياته وبقائه إلى أجله .
- ٢ - أن نخلص الدعاء لله في حال الرخاء والشدة فهو أصل العبادة ومحها .
- ٣ - بيان الصورة الحقيقية للحياة الدنيا في نضرتها وسرعة زوالها .

المحتوى التربوى :

بعد أن انتهى السياق من عرض ما يقول المستخلفون وما يفعلون ، يعود إلى الحديث عن بعض طبائع البشر حين يذوقون الرحمة والنعمة بعد الضر ، كما تحدث عنهم حين يصيبهم الضر ثم ينجون منه ، ويضرب لهم مثلاً مما يقع في الحياة يصدق ذلك .

يقول صاحب الظلال : «عجيب هذا المخلوق الإنسانى لا يذكر الله إلا في ساعة العسرة ولا يشوب إلى فطرته ، وينزع عنها ما غشاها من شوائب وانحرافات إلا في ساعة الكربة، فإذا أمن فإما النسيان وإما الطغيان ، ذلك إلا من اهتدى فبقيت فطرته سليمة حية مستجيبة في كل آن ، مجلوة - دائماً - بجلاء الإيمان .

﴿وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّنْ بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسَّيْنَهُمْ إِذَا لَّهُمْ مَكْرُفٌ عَائِيَاتِنَا﴾ .

كذلك صنع قوم فرعون مع موسى فكلما أخذوا بعذاب استغاثوا به ووعدوا بالعدول عما هم فيه ، فإذا ذاقوا الرحمة مكروا فى آيات الله وأولوها على غير وجهها ، وقالوا : إنما رفع عنا الرجز بسبب كذا وكذا ، وكذلك صنعت قريش وقد أجديت وخافت الهلاك فجاءت الرسول ﷺ تناشده الرحمة أن يدعو الله فدعاه فاستجاب له بالسقيا ثم مكرت قريش بآية الله ، وظلت فيما هى فيه ! وهى ظاهرة مطردة فى الإنسان ما لم يعصمه الإيمان .

ولكن الله أسرع مكرأ وأقدر على التدبير وإبطال ما يمكرون . ومكرهم مكشوف لديه ومعروف ، فلا شئ منه يخفى ، ولا شئ منه ينسى ، ورسـل الله - عز وجل - تكتب ؛ ولا ندرى ولا نعرف عن ذلك شيئاً لأنه غيب ، فعلينا أن نتركه دون تأويل ولا إضافة لدلالة اللفظ الصريح .

ويرسم السياق مشهداً حياً يقرر فيه قدرة الله المسيطرة المهيمنة على الحركة والسكون فى قوله :

﴿هُوَ الَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ ويصور مشهدهم وهم فى الفلك ، وهى تتحرك بهم فى رخاء ، وهم منعمون فى سرور شامل ، وفجأة تأخذ الغارين الأمنين الفرحين ، ﴿رِيحٌ عَاصِفٌ﴾ ، يلاطمها الموج ويدور بها كالريشة الضائعة فى الحضم ، فلا مجال للنجاة عندئذ فقط ، وفى وسط هذا الهول المتلاطم ، تحيا فطرتهم وتطهر مما ألم بها من أدران وتنفض الفطرة الأصلية السليمة بالتوحيد وإخلاص الدينونة لله دون سواه .

﴿دَعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَخْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ .

وتهدأ العاصفة ويطمئن الموج الهادر ، وتهدأ الأنفاس اللاهثة ، وتصل الفلك أمنة إلى الشاطئ ، ويوقن الناس بالحياة ، وأرجلهم مستقرة على اليباس فماذا ؟ ! ﴿فَلَمَّا أَخْجَيْتَهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ .

قال الألوسى بمناسبة قوله - تعالى : ﴿يَتَأْتِى النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ : « هذا وفى الآية من الزجر عن البغى ما لا يخفى . وقد أخرج أبو الشيخ وأبو نعيم والخطيب والديلمى وغيرهم عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « ثلاث هن رواجع على أهلها : المكر والنكت والبغى » ثم تلا عليه الصلاة والسلام : ﴿يَتَأْتِى النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ ، « وَلَا تَحْقِيقُ الْمَكْرِ السَّبِيَّ إِلَّا بِأَهْلِهِ » (فاطر : ٤٣) ، « فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ » (الفتح : ١٠) .

ويقول صاحب الظلال : « والناس حين يبغون هذا البغى يذوقون عاقبته فى حياتهم الدنيا قبل أن يذوقوا جزاءه فى الدار الآخرة . يذوقون هذه العاقبة فساداً فى الحياة كلها لا يبقى أحد لا يشقى به ، ولا تبقى إنسانية ولا كرامة ولا حرية ولا فضيلة لا تضار به .

إن الناس إما أن يخلصوا دينوتهم لله ، وإما أن يتعبد لهم الطغاة ، والكفاح لتقرير ألوهية الله وحدها فى الأرض ، وربوبية الله وحدها فى حياة البشر ، هو كفاح للإنسانية وللحرية وللكرامة وللفضيلة ، ولكل معنى كريم يرتفع به الإنسان على ذل القيد ، ودنس المستقع ، وامتهان الكرامة ، وفساد المجتمع ، ودناءة الحياة !

ويضرب الله - عز وجل - لهم مثل الحياة الدنيا التى لا يملك الناس إلا متاعها ، حين يرضون بها ، ويقفون عندها ، ولا يتطلعون منها إلى ما هو أكرم وأبقى .

هذا هو الماء ينزل من السماء ، وهذا هو النبات يمتصه ويختلط به فيمرع ويزدهر ، وما هى ذى الأرض كأنها عروس مجلوة ، وأهلها مزهوون بها ، يظنون أنها بجهدهم ازدهرت ، وأنهم أصحاب الأمر فيها ، وفى وسط هذه السطوة ، وفى غمرة هذا الاطمئنان الوائق ، وفى ومضة ، وفى خطفة : ﴿ أَتَنْهَأُ مَرْئِنًا لَّيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَقَفْ بِالْأَمْسِ ﴾ .

وكأن الله يقول لهم هذه هى الدنيا التى يستغرق فيها بعض الناس ؛ ويضيعون الآخرة كلها لينالوا منها بعض المتاع ، هذه هى لا أمن فيها ولا اطمئنان ، ولا ثبات فيها ولا استقرار ، ولا يملك الناس من أمرها شيئاً إلا بمقدار .

﴿ وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ فبالبعد الشقة بين دار يمكن أن تطمس فى لحظة ودار السلام التى يدعو إليها الله ، ويهذى من يشاء إلى صراطه المؤدى لها . حينما تفتح بصيرته ، ويتطلع إلى دار السلام .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - من طبيعة الخلق الرجوع إلى الله فى الشدائد ، مما يؤكد أن الإيمان فطرة فى النفوس .

٢ - المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً ؛ لأنه لا يملك الأسباب ؛ ولأنه يرجع حتماً إلى رب الأرباب .

٣ - متاع الدنيا قليل زائل ، فلا نغتر بها وإنما نتخذها فرصة للعمل الصالح وتحقيق السعادة فى دار السلام .

٤ - من مكر مكر الله به ، والله أسرع مكرراً وأكبر أثراً وضرراً .

٥ - التحذير من الاغترار بالدنيا والركون إليها .

٦ - التحذير من الذنوب ، فإنها سبب الشقاء وسلب النعم .

٧ - إخلاص العبد فى الدعاء فى حال الشدة آية على أن التوحيد أصل والشرك طارئ .

معانى الكلمات :

الحسنى : الجنة .

وزيادة : التمتع بالنظر إلى الرب الكريم .

يرهق : يغشى ويغشى .

قتر : الغبار وكدره اللون .

ذلة : كآبة الانكسار .

أغشيت : ألبست .

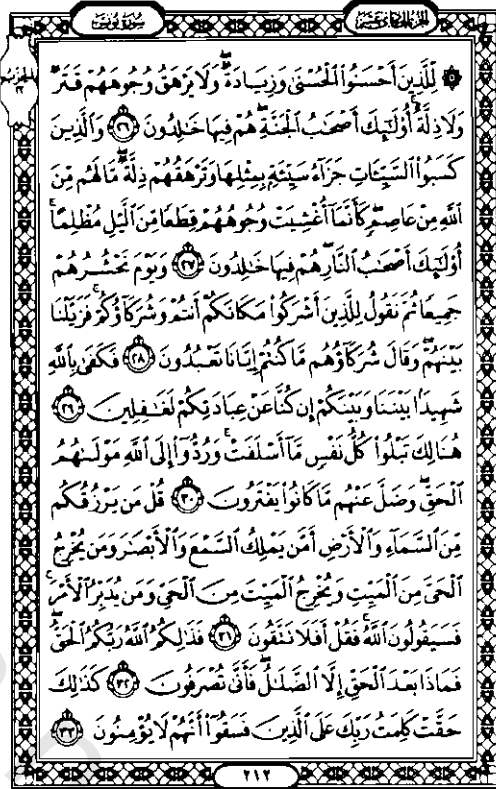
فزيلنا : ميزنا ، وفرقنا .

تبلو : تعلم أو تشاهد .

فأنى تصرفون : كيف تختارون الانصراف

عن الحق .

حققت : وجبت .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - بيان فضل الحسنة وما تعقبه من نيل الحسنى .

٢ - بيان سوء السيئة وما تورثه من حسرة وندامة وما توجيه من خسران .

٣ - تقرير معتقد البعث والجزاء بعرض صادق واضح له .

المحتوى التربوى :

هذه الآيات كلها تعطى فى طابعها العام لمسات وجدانية متتابعة تنتهى كلها إلى هدف واحد: مواجهة الفطرة البشرية بدلائل توحيد الله وصدق الرسول ، واليقين باليوم الآخر والعدل فيه، ويكشف السياق هنا عن قواعد الجزاء للمهتدين ولغير المهتدين ، ويكشف عن رحمة الله وفضله وعن قسطه وعدله فى جزاء هؤلاء وهؤلاء .

فأما الذين أحسنوا . أحسنوا الاعتقاد ، وأحسنوا العمل ، وأحسنوا معرفة الصراط المستقيم وإدراك القانون الكونى المؤدى إلى دار السلام ، فأما هؤلاء فلهم الحسنى جزاء ما أحسنوا وعليها زيادة من فضل الله غير محدودة . وهم ناجون من كربات يوم الحشر ، ومن أهوال الموقف

قبل أن يفصل فى أمر الخلق ، ولا يغشى وجوههم قتر ولا تكسو ملامحهم الذلة . وأولئك أصحاب هذه المنزلة العالية البعيدة الآفاق ﴿ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ ﴾ وملاكها ورفاقها ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

أما الذين كسبوا السيئات لا يضاعف لهم الجزاء ، ولا يزداد عليهم السوء ولكن ﴿ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا ﴾ .. ﴿ وَتَزَهَّقُهُمْ ذِلَّةٌ ﴾ تغشاهم وتركبهم وتكرههم ﴿ مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ نفاذاً لسنة الله الكونية فيمن ينجد عن الطريق، ويخالف الناموس ، ثم ترسم الآيات صورة حسية للظلام النفسى والكرب والكدر التى تعلو وجه المكروب المرعوب كأنها أخذت من الليل المظلم قطعاً رقماً غشيت بها هذه الوجوه ! وهكذا يغشى الجو كله ظلام من ظلام الليل المظلم ورهبة من رهبته ، تبدو فيه هذه الوجوه مكسوة بأغشية من هذا الليل البهيم . وذلك جزاء المبغدين فى هذا الظلام ﴿ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ ملاكها ورفاقها ﴿ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ .

وتحكى الآيات قصتهم يوم القيامة ، وموقف الحزى الذى يكونون فيه وهم محشورون جميعاً الكفار والشركاء .. وهم كانوا يزعمونهم شركاء الله ، ولكن القرآن يسميهم « شركاءهم » تهكماً من جهة ، وإشارة إلى أنهم من صنعهم هم ولم يكونوا يوماً شركاء الله .

وفى موقف الحشر لا يتكلم الذين كفروا ولكن يتكلم الشركاء ليبرئوا أنفسهم من الجريمة ، جريمة أن عبدتهم هؤلاء الكفار مع الله ، أو من دون الله ، وفى هذا الموقف المكشوف والمشهود تختبر كل نفس ما أسلفت من عمل ، وتذكر عاقبته إدراك الخبرة والتجربة ، وهنالك يتكشف الموقف عن رب واحد حق يرجع إليه الجميع ، وما عداه باطل ، وهناك لا يجد المشركون شيئاً من دعاويهم ومزاعمهم وأهتهم ، فكله شرد عنهم ولم يعد له أثر .

ومن مشهد الحشر الذى تسقط فيه الدعاوى والأباطيل ، ويتجلى فيه أن الله هو المهيمن على الموقف وما فيه . ينتقل السياق إلى واقعهم الذى يعيشون فيه ، وإلى أنفسهم التى يعلمونها ، وإلى المشاهد التى يرونها فى الحياة أبل إلى اعترافهم هم أنفسهم بأنها من أمر الله ومن خلق الله .

ويقول صاحب الظلال : ولقد مرّ أن مشركى العرب لم يكونوا ينكرون وجود الله ، ولا أنه الخالق ، والرازق ، والمدبر . إنما كانوا يتخذون الشركاء للزلفى ، أو يعتقدون أن لهم قدرة إلى جانب قدرة الله . فهو هنا يأخذهم بما يعتقدونه هم أنفسهم ؛ ليصحح لهم عن طريق إيقاظ وعيهم وتدبرهم ومنطقهم الفطرى - ذلك الخلط والضلال .

إن النفس حين تنفصل عن منهج الله وطاعته ، وحين تستبد بها الأهواء ، والمصالح تعمى عن رؤية الحق حتى لو كان كان أمامها ، بالرغم من إقرارهم بأن الله الذى يرزقهم ، هو الذى منح حاستى السمع والبصر وهو حاسناً الإنسان الرئيسة ، بل يرون مشهد الميلاد والإحياء كل يوم ، وتدبير أمور الكون ، وكلها أمور متجددة لا تنقطع .

ونعود مرة أخرى إلى بداية السياق لنقف مع بعض الفوائد التربوية للآيات ، فيقول صاحب الأساس في تفسير الزيادة في قوله - تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ يقول : روى الإمام أحمد عن صهيب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ وقال : « إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، نادى نادٍ : يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعداً يريد أن ينجزكموه ، فيقولون : وما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ، ألم يبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ، ويخرجنا من النار ؟ قال : فيكشف لهم الحجاب ، فينظرون إليه ، فوالله ما أعطاهم الله شيئاً أحب إليهم من النظر إليه ولا أقر لأعينهم » [هكذا رواه مسلم وجماعة من الأئمة] .

وروى ابن جرير ، عن عطاء عن كعب بن عجرة ، عن النبي ﷺ في قوله تعالى ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ قال : « الحسنى الجنة ، والزيادة النظر إلى وجه الله - عز وجل » [رواه ابن أبى حاتم] .

ويقول صاحب الأساس بمناسبة قوله - تعالى : ﴿ فَمَآذًا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ ﴾ : أى : لا واسطة بين الحق والضلال ، فمن تخطى الحقوق وقع في الضلال ، فالله الحق وكل معبود سواه باطل ، ورسوله الحق فكل ما يناقض ذلك باطل . ووجه الحق فكل ما خالفه باطل والعبودية له هى الحق فكل عبودية لغيره باطلة ﴿ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴾ عن الحق إلى الضلال ، والباطل ، عن التوحيد إلى الشرك ، عن اتباع الرسول إلى اتباع الشيطان ، عن اتباع الوحي إلى اتباع الهوى .

لذا وجبت وثبتت كلمة الله على الذين فسقوا وتمردوا في كفرهم وخرجوا إلى الحد الأقصى فيه ﴿ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ وهذه هى كلمة الله الأزلية أن الفاسق لا يستأهل الهداية ، ولا يهديه الله - نسأل الله العافية .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - يجازى الله الذين أحسنوا بما يزيد عن إحسانهم - فضلاً من الله وكرماً ، والله يحب المحسنين ، بينما الذين عملوا السيئات جزاء سيئة بمثلها - عدلاً من الله ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف : ٤٩) .

٢ - في عرضات القيامة تعلم كل نفس ما أحضرت ، وما قدمت وأخرت وتبلو ما أسلفت فتعرف وأنى لها أن تنتفع بها تعرف .

٣ - التوغل في الشر والفساد يصبح طبعاً لصاحبه فلا يخرج منه حتى يهلك به .

٤ - ليس بعد الحق إلا الضلال فلا واسطة بينهما فمن لم يكن على حق فهو على ضلال .

معاني الكلمات :

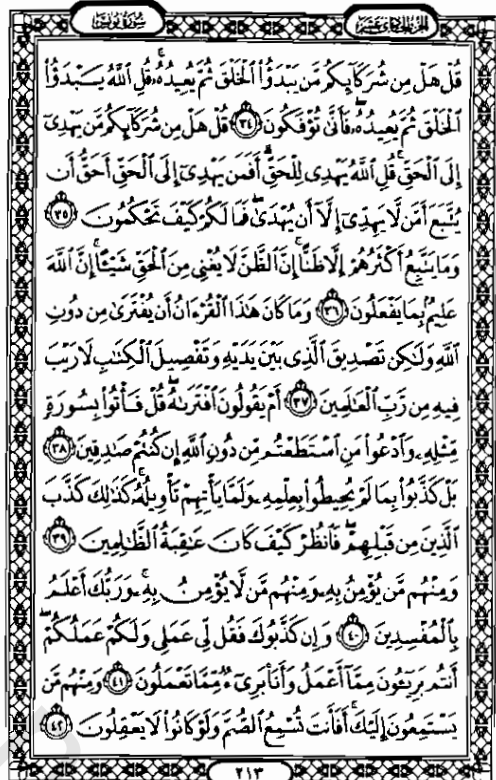
تؤفكون : تصرفون .

لا رب فيه : لا شك فيه .

يأتهم تأويله : يتبين لهم عاقبته .

ومنهم من يؤمن به : ومن المكذبين من يؤمن به سراً ، ولكن يجاهر بالكفر به عناداً .

الصم : الذين لا يسمعون .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - تقرير عقيدة الوحى وإثبات نبوة محمد ﷺ .
- ٢ - إثبات أن القرآن مصدر كل الكتب السماوية قبله من لدن الله - تعالى .
- ٣ - أن نعلم أن الظن لا يقبل في العقائد بل لابد من العلم اليقيني فيها .

المحتوى التربوى :

ويستمر السياق في عرض مظاهر قدرة الله ، والرد على الذين اتخذوا شركاء من دون الله ، فيوجه إليهم السؤال ارتكاناً على مسلماتهم الأولى ، ثم لا يطلب إليهم الجواب ، إنها يقرره لهم اعتماداً على وضوح الرؤية والنتائج بعد تسليمهم بالمقدمات « قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ؟ » وهم مسلمون بأن الله هو الذى يبدأ الخلق غير مسلمين بإعادته ، ولا بالبعث والنشور والحساب والجزاء ، ولكن حكمة الله الخلق المدبر لا تكمل بمجرد بدء الخلق ؛ ثم انتهاء حياة المخلوقين في هذه الأرض ، ولم يبلغوا الكمال المقدر لهم ، ولم يلقوا جزاء إحسانهم وإساءتهم ، وسيرهم على المنهج أو انحرافهم عنه ، إنها رحلة ناقصة لا تليق بخالق مدبر حكيم ، وإن الحياة الآخرة لضرورة من ضرورات الاعتقاد في حكمة الخالق وتدبيره وعدله ورحمته ، ولابد من

تقرير هذه الحقيقة لهم وهم الذين يعتقدون بأن الله هو الخالق ، هم الذين يسلمون كذلك بأنه يخرج الحى من الميت ، والحياة الأخرى قريبة الشبه بإخراج الحى من الميت الذى يسلمون به .

﴿ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ﴾ ، وإنه لعجيب أن يصرفوا عن إدراك هذه الحقيقة ولديهم مقدماتها ﴿ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴾ .. فأين تتوجهون بعيداً عن الحق إلى الإفك وتضلون ؟ ﴿ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدَى إِلَى الْحَقِّ ﴾ .

فينزل كتاباً ، ويرسل رسولاً ، ويضع نظاماً ، ويشرع شريعة ، وينذر ويوجه إلى الخير ، ويكشف عن آيات الله فى الكون والنفس ؛ ويوقظ القلوب الغافلة كما هو معهود لكم من رسوله الذى جاءكم بهذا كله وعرضه عليكم لتهدوا إلى الحق ؟ ومن هنا تنشأ قضية جديدة ، جوابها مقرر : ﴿ أَفَمَنْ يَهْدَى إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهْدَى إِلَّا أَنْ يَهْدَى ﴾ ؟

ثم يعقب الله على ما سبق بتقرير واقعهم فى النظر والاستدلال والحكم والاعتقاد ، فهم لا يستندون إلى يقين فيما يعتقدون أو يعبدون أو يحكمون ، إنما يتعلقون بأوهام وظنون ، يعيشون عليها ويعيشون بها ؛ وهى لا تغنى من الحق شيئاً .

فهم يظنون أن الله شركاء ، ولا يحققون هذا الظن ولا يتمنونه عملاً ولا عقلاً ، وهم يظنون أن آباءهم ما كانوا ليعبدوا هذه الأصنام لو لم يكن فيها ما يستحق العبادة .

ولا يمنحونهم هذه الخرافة ، وهم يظنون أن الله لا يؤحى إلى رجل منهم ، ولا يحققون لماذا يمتنع هذا على الله وهم يظنون أن القرآن من عمل محمد ، وهكذا يعيشون فى مجموعة من الظنون لا تحقق لهم من الحق شيئاً والله وحده هو الذى يعلم علم اليقين أفعالهم وأعمالهم .

وتفريعاً على هذا التعقيب ، يأخذ بهم السياق فى جولة جديدة حول القرآن تبدأ بنفى التصور لإمكان أن يكون القرآن مفترى من دون الله وحده وتحديهم أن يأتوا بسورة مثله ، وتثنى بوصمهم بالتسرع فى الحكم على ما لم يعلموه يقيناً أو يحققوه ، وتثلى بإثبات حالتهم فى مواجهة القرآن ، وتثبت الرسول ﷺ على خطته - أياً كانت استجابتهم أو عدم استجابتهم له ، وتنتهى بالتيئيس من الفريق الضال والإيمان إلى مصيرهم الذى لا يظلمهم الله فيه ؛ وإنما يستحقون بها هم فيه من ضلال .

يقول صاحب الظلال فى قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ القرآن بخصائصه الموضوعية والتعبيرية بهذا الكمال فى تناسقه ، وبهذا الكمال فى تناسقه ، وبهذا الكمال فى العقيدة التى جاء بها لا يمكن أن يكون مفترى من دون الله ، لأن قدرة واحدة هى التى تملك الإتيان به هى قدرة الله ، القدرة التى تحيط بالأوائل والأواخر وتضع المنهج المبرأ من القصور والنقص .

ويقول صاحب الأساس : ولما نعى الله على السائرين وراء الظنون والأوهام ، ولما كان الطريق للخلاص من ذلك هو القرآن فقد قال الله بعد ذلك : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى

من دُوبِ اللَّهِ ﷻ أى ما صح وما استقام فى منطق العقل أن يكون مثل هذا القرآن فى علو أمره ، وإعجازه ، وكثرة معجزاته منسوباً إلى الله كذباً ، فهذا القرآن بفصاحته وبلاغته وحلاوته واشتماله على ما اشتمل عليه لا يكون إلا من عند الله . ولكن أنزل ﴿تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أى من الكتب المتقدمة ، مصداقاً لها ومهيماً عليها ، ومبيناً لما وقع من التحريف والتبديل فيها .

وبهذا تقرر الآيات الثلاث أن الله هو الهادى ، وأن من مظاهر هدايته هذا القرآن ، وأن من يتبع غير هدايته فهو فى ضلال . فيا أيها المتعجبون أن ينزل الله وحياً ويرسل رسولاً اعلّموا ذلك ، فالحجة قائمة عليكم أن هذا القرآن من عند الله ، فلا تعجبوا ، فإن عجبكم فى غير محله ، وهكذا أقامت الآيات الحجة على الكافرين فى أمر الوجدانية واليوم الآخر والرسول والقرآن ؛ وتوضيح الحق فى هذه الأشياء ضرورى لتحطيم فكرة الكافرين فى العجب من أن ينزل الله وحياً ، ويرسل رسوله مبشراً ومنذراً .

ويمضى السياق فى تقرير نبوة النبى ﷺ قال - تعالى - من خطاب رسوله لِيُسَلِّيه وَيَصْبِرْهُ عَلَى عَدَمِ إِيَّان قَوْمِهِ مع ظهور الأدلة وقوة البراهين ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يُؤْمِنُ بِهِ﴾ أى بالقرآن وبالنبى - أيضاً إذ الإيَّان بواحد يستلزم الإيَّان بالثانى ، ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ ، وهذا إخبار غيب ، ثم كما أخبر - تعالى - فقد آمن من المشركين عدد كبير ولم يؤمن عدد آخر . والله عليم بهؤلاء المعاندين المفسدين ، فإن استمروا فى تكذيبهم لك فلا تحفل بهم وقل : ﴿لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيغُونَ مِمَّا أَعْمَلُوا وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ . فإذا كان هناك عقاب دنيوى تسلم منه ، ويهلكون هم به .

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « وهذا الكلام فيه تبشير للنبى ﷺ بأنه مع هذه الحال الحالكة المظلمة سيكون من يؤمن ومن يجدد إيمانكم فى كل الأزمان ويصدق بالقرآن ويدعن له ، فالقرآن باقى خالد محفوظ ، ونور يهدى ما بقى الإنسان فى هذه الأرض ... ثم يقول تعالى : ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ علماً دقيقاً محيطاً بالذين لا يؤمنون ، وعبر بالمفسدين ؛ لبيان أن فى طلبهم الإفساد فى الأرض ومنع الإصلاح فيها » .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - لا يقبل الظن فى العقائد بل لابد من العلم اليقنى فيها .
- ٢ - كراهية القول بالظن والعمل به وفى الحديث : « إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث » .
- ٣ - من أدلة القرآن على أنه وحى من عند الله تحدى الله العرب بالإتيان بسورة واحدة فى فصاحته وبلاغته وإعجازه وعجزهم عن ذلك .
- ٤ - من أدلة أن القرآن كلام الله تصديقه للكتب السالفة ، وعدم التناقض معها إذ هى من مصدر واحد وهو الله رب العالمين .

معانى الكلمات :

ينظر إليك : يشاهد دلائل نبوتك

الواضحة .

شاهد : مطلع .

بالقسط : بالعدل .

أجل : مدة معلومة هلاكهم .

بياتاً : وقت البيات أى ليلاً .

يستنبئونك : يستخبرونك عن العذاب .

إى وربى : نعم وربى .

وما أنتم بمعجزين : وما أنتم بفاتين من

عذاب الله بالهرب .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتعرف على مشاهد من يوم القيامة ونتدبرها ونستعد لها .

٢ - أن نحسن العمل فهو معروض على الله يوم القيامة والشهود حجة لنا أو علينا .

٣ - أن نعلم علم اليقين أن الله هو الضار النافع، ولا يعلم الغيب إلا الله ، ولكل إنسان أجل، ولكل أجل كتاب .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات تستعرض حال بعضهم من الرسول ﷺ ، وهم يستمعون إليه بأذانهم وقلوبهم مغلقة ، وينظرون إليه بعيونهم وبصيرتهم مطموسة ، فلا يعود السمع والنظر بشيء ، ولا يهتدون إلى الطريق ، إن هؤلاء الخلائق الذين يستمعون ولا يعقلون ما سمعوا ، وينظرون ولا يميزون ما نظروا - كما يقول صاحب الظلال : إن هؤلاء لكثير ، فى كل زمان وفى كل مكان ، والرسول ﷺ لا يملك لهم شيئاً ؛ لأن حواسهم وجوارحهم مطموسة لا اتصال بعقولهم وقلوبهم ، فكانها معطلة لا تؤدى حقيقة وظيفتها . والرسول ﷺ لا يسمع الصم ، ولا يبصر العمى . فذلك من شأن الله وحده - عز وجل - والله سن سنة وترك الخلق لمقتضى السنة ، وأعطاهم الأسماع

والأبصار والعقول ليهتدوا بها ؛ فإذا هم عطلوها حقت عليهم سنته التى لا تتخلف ولا تحابى ،
ولقوا جزاءهم عدلاً ولم يظلمهم الله شيئاً .

وفى هذه الآيات تسرية عن رسول الله ﷺ مما يجده فى نفسه من ضيق بهذا التكذيب لما معه من
الحق ، وبهذا العناد الصفيق بعد تكرار البيان والإعلام . وذلك بما يقرره له ربه من أن إباءهم
الهدى لم يكن عن تقصير منه فى الجهد ، ولا قصور فيما معه من الحق . ولكن هؤلاء كالصم
العمى ، وما يفتح الآذان والعيون إلا الله . فهو شأن خارج عن طبيعة الدعوة والداعية داخل فى
اختصاص الله .

وفىها كذلك تحديد حاسم لطبيعة العبودية ومجالها - حتى ولو تمثلت فى شخص رسول الله ،
فهو عبد من عباد الله لا قدرة له خارج مجال العبودية ، والأمر كله لله .

بعد ذلك يستعرض السياق مشهداً من مشاهد القيامة ، تبدو فيه الحياة الدنيا التى تزحم
حسهم ، وتشغل نفوسهم ، وتأكُل اهتماماتهم ، رحلة سريعة قضاها الناس هناك ، ثم عادوا إلى
مقرهم الدائم ودارهم الأصلية ، وترسم الآيات تشبيها للحياة الدنيا وللناس الذين دخلوا ثم
خرجوا ، كأن لم يفعلوا شيئاً سوى اللقاء والتعارف .

وفى ظل المشهد تبدو الخسارة الفادحة لمن جعلوا همهم كله هو هذه الرحلة الخاطفة ، وكذبوا
بلقاء الله ، وشغلوا عنه واستغرقوا فى تلك الرحلة ، بل تلك الومضة - فلم يستعدوا لهذا اللقاء
بشئ يلقون به ربهم ؛ ولم يستعدوا كذلك بشئ للإقامة الطويلة فى الدار الباقية : ﴿ قَدْ خَبِرَ
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾ .

ومن هذا المشهد الخاطف ليوم الحشر ، ينتقل السياق لتقرير حقيقة مهمة وهى أن مرجع
القوم إلى الله ، سواء وقع بعض الوعيد الذى كلف الرسول ﷺ أن يبلغه لهم ، فى حياته أو بعد
وفاته ، فالمرجع إلى الله فى الحالىن ، وهو شهيد على يفعلون فى حضور الرسول بالحياة ، وفى غيبته
بالوفاة . فلن يضيع شئ من أعمالهم ولن تعفيهم وفاة الرسول ﷺ مما يوعدون .

وحقيقة أخرى يقررها السياق وهى أن أمر العقيدة ، وأمر القوم الذين يخاطبون بها كله لله ،
وأن ليس لك - للرسول ﷺ - من الأمر شئ . ودورك فيها هو البلاغ ، أما ما وراء ذلك فكله لله ،
وقد ينقض أجلك كله ولا ترى نهاية القوم الذين يكذبونك ويعاندونك ويؤذونك ، فليس حتماً
على الله أن يريك عاقبتهم ، وما ينزله بهم من جزاء . هذا له وحده - سبحانه ! أما أنت - وكل
رسول - فعليك البلاغ ، ثم يمضى الرسول ويدع الأمر كله لله ، ذلك كى يعلم العبيد مجاهم وكى
لا يستعجل الدعاة قضاء الله مهما طال عليهم فى الدعوة ، ومهما تعرضوا فيها من عذاب .

﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ؛ وقد كانوا يسألون فى تحدٍ واستعجال طالبين وقوع ما يوعدهم به النبى ﷺ من قضاء الله فيهم ، كما قضى الله بين الأمم التى جاءتها رسلها فكذبت ، فأخذ الله المكذبين : والجواب : أن الأمر لله بحقق وعيده فى الوقت الذى يشاؤه وسنة الله لا تتخلف ، وأجله الذى أجله لا يُستعجل .

فى قوله تعالى : ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَجِيرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ يقول صاحب الظلال : الأجل قد ينتهى بالهلاك للحى ، هلاك الاستئصال كما وقع لبعض الأمم الخالية ، وقد ينتهى بالهلاك المعنوى ، هلاك الهزيمة والضياح ، وهو ما يقع للأمم ، إما لفترة تعود بعدها للحياة ، وإما دائماً فتضمحل وتنمحي شخصيتها وتنتهى إلى اندثارها كاملة ، وإن بقيت كأفراد . وكل أولئك وفق سنة الله التى لا تتبدل .

وينقلهم السياق من موقف السائل المستهزئ المتحدى ، إلى موقف المهتد الذى قد يفاجئه المحظور فى كل لحظة من الليل أو النهار ، وبينما هم فى مفاجأة السؤال ينقل مشاعرهم إلى تصور الخطر وتوقعه ، تفجؤهم الآية التالية بوقوعه فعلاً - وهو لم يقع بعد - ولكن كما يقول صاحب الظلال : التصور القرآنى يرسمه واقعاً ، ويغمر به المشاعر ، ويلمس به الوجدان ﴿أَتُمَرِّدُونَ عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّهُمْ لَمَّا أُنذِرُوا أَنذَارًا وَيَسْتَكْبِرُونَ﴾ ؟ !

فكأنها وقع ، وكأنها قد آمنوا به ، وكأنها يخاطبون بهذا التبكيت فى مشهد حاضر يشهدونه الآن ! وتمة المشهد فى ساحة الحساب والعذاب ، وختام هذه الجولة ، هو استنباء القوم للرسول - إن كان هذا الوعيد حقاً - فهم مزلزلون من الداخل تجاهه يريدون أن يستوثقوا وليس بهم من يقين ، والجواب بالإيجاب حاسم مؤكد بيمين : ﴿وَيَسْتَكْبِرُونَ لَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّى إِنَّهُ لَحَقُّ وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - فى يوم القيامة يستقبل الناس ما قضوه فى حياتهم الدنيا وفى قبورهم ، كأنه ساعة من نهار .
- ٢ - يوم القيامة لا يعرف القربات بعضهم بعضاً ، ولكن كل إنسان يكون مشغولاً بنفسه مهتماً بما يصير إليه أمره .
- ٣ - كل أمة تعرض يوم القيامة على الله بحضرة رسولها ، وكتاب أعمالها من خير أو شر ، شاهد عليها ، وحفظة من الملائكة شهود أيضاً .
- ٤ - لا يعلم الغيب إلا الله ، ولا يملك الضر والنفع إلا هو ، وقد حدد لكل إنسان أجلاً لا يتقدم عنه ولا يتأخر .

معانى الكلمات :

أسروا الندامة : أخفوا الغم والحسرة .

بالقسط : بالعدل .

موعظة : القرآن .

أذن لكم : أعلمكم بهذا التحليل والتحريم .

تفترون : تكذبون .

شهوداً : رقباء .

تفيضون : تخوضون .

ما يعزب : ما يغيب .

مثقال ذرة : وزن قطعة الهباء . وهو ما يرى

متطائراً فى ضوء الشمس .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نعلم علم اليقين أن الذى ينفع الإنسان يوم القيامة ليس حسبه ولا ماله ولو افتدى بملء الأرض ذهباً .

٢ - أن نعتقد أن وعد الله حق ، وهو القادر العليم ، ولا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

٣ - أن نوقن أن الله قد أحاط بكل شىء علماً ، ولا يغيب عن علمه - تعالى - مثقال ذرة فى أرض أو سماء .

المحتوى التربوى :

بينما يتحدث السياق عن استنباء المشركين للرسول وجوابه عليهم ، إذا نحن فجأة مع السياق فى نقلة من نقلات الأسلوب القرآنى المصورة فى ساحة الحساب والجزاء مبدئياً على وجه الفرض والتقدير : ﴿ وَلَوْ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ ﴾ فلا يقبل منها حتى على فرض وجوده معها ، ولا تكتمل الآية حتى يكون الغرض قد وقع وقضى الأمر : ﴿ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ ﴾ أخذتهم وهلة المفاجأة فسقط فى أيديهم : ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ .

ويأتى التعقيب المؤكد للحشر والحساب ، جولة أخرى مع القدرة فى بعض مجالها فى السماء والأرض وفى الحياة والموت ؛ جولة عابرة لتوكيد معنى القدرة الكفيلة بتحقيق الوعد ، ثم نداء عام للناس أجمعين للانتفاع بهذا القرآن الذى يحمل لهم الموعدة والهدى وشفاء الصدور .

وبهذا الفضل الذى آتاه الله عباده ، وبهذه الرحمة التى أفاضها عليهم من الإيمان فبذلك وحده فليفرحوا . فهذا هو الذى يستحق الفرح . لا المال ولا أعراض هذه الحياة ، إن ذلك هو الفرح العلوى الذى يطلق النفس من عقال المطامع الأرضية والأعراض الزائلة فيجعل هذه الأعراض خادمة للحياة لا مخدومة ؛ ويجعل الإنسان فوقها وهو يستمتع بها لا عبداً خاضعاً لها ؛ والإسلام لا يحقر أعراض الحياة الدنيا ليهجرها الناس ويزهّدوا فيها . إنما هو يزنّها بوزنها ليستمتع بها الناس وهم أحرار الإرادة طلقاء إليه مطمّحهم أعلى من هذه الأعراض وآفاقهم أسمى من دنيا الأرض ، الإيمان عندهم هو النعمة ، وتأدية مقتضيات الإيمان هى الهدف . والدنيا بعد ذلك مملوكة لهم لا سلطان لها عليهم .

يقول صاحب الظلال : إن الأرزاق المادية ، والقيم المادية ، ليست هى التى تحدّد مكان الناس فى هذه الأرض - فى الحياة الدنيا فضلاً عن مكانهم فى الحياة الأخرى إن الأرزاق المادية ، والتيسيرات المادية ، والقيم المادية ، يمكن أن تصبح من أسباب شقوة البشرية ...

إن المنهج الذى يحكم حياة مجموعة من البشر هو الذى يحدّد قيمة الأرزاق المادية فى حياتهم هو الذى يجعلها عنصر سعادة أو عنصر شقاء كما يجعلها سبباً للرقى الإنسانى ، أو مزلقاً للارتكاس ! ومن هنا كان التركيز على قيمة هذا الدين فى حياة أهله .

إن القيمة العليا يجب أن تبقى لفضل الله ورحمته المتمثلين فى هداه الذى يشفى الصدور ، ويجرّ الرقاب ، ويعلى من القيم الإنسانية فى الإنسان ، وفى ظل هذه القيمة العليا يمكن الانتفاع برزق الله الذى أعطاه للناس فى الأرض ؛ وبالتصنيع الذى يوفر الإنتاج المادى وبالتيسيرات المادية التى تقلل من شدة اللوح وبسائر هذه القيم التى تدق الجاهلية حولها الطبول فى الأرض ! وبدون وجود تلك القيمة العليا - الدين - وسيادتها تصبح الأرزاق والتيسيرات والإنتاج لعنة يشقى بها الناس ؛ لأنها يومئذ تستخدم فى إعلاء القيم الحيوانية والآلية ، على حساب القيم الإنسانية العلوية .

ويتعرض السياق للجاهلية وهى تزاوّل حياتها العملية ، لا وفق ما جاء من عند الله ، ولكن وفق أهواء البشر واعتدائهم على خصائص الله - سبحانه - بجهلهم هنا بالافتراء ، ثم يسألهم ماذا تظنون بربكم يوم القيامة وأنتم تفترون عليه ، فما ظنهم يا ترى ؟ ما الذى يتصورون أن يكون فى شأنهم يوم القيامة !! وهو سؤال تذوب أمامه حتى الجبلات الصلدة الجاسية !

والله ذو فضل على الناس برزقه هذا المادى الذى أودعه هذا الكون من أجلهم ؛ وأودع فيهم القدرة على معرفة مصادره ؛ والنواميس التى تحكم هذه المصادر ، وأقدرهم كذلك على التنوع فى أشكاله ، والتحليل والتركيب فى مادته لتنوع هذه الأشكال وكله فى الكون وفيهم من رزق الله .

ولكن أكثر الناس لا يشكرون على هذا الرزق وذاك.. فإذا هم يحيدون عن منهج الله وشرعه ، وإذا هم يشركون به غيره ، ثم يشقون فى النهاية بهذا كله ، لأنهم لا يتفكرون بهذا الذى هو شفاء لما فى الصدور !

لا يشكرون ، والله هو المطلع على السرائر ، المحيط بكل مضمهر وظاهر ، الذى لا يغيب عن علمه ولا يبعد عن متناول قدرته مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، والسياق يطرح هذا الأنس والأمن والطمأنينة فى جوار الله ليخرج منها إلى طمأننة الرسول ﷺ ومن معه أنهم فى رعاية الله وولايته ، لا يضرهم المكذبون ، الذين يتخذون مع الله شركاء وهم واهمون .

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة فى زهرة التفاسير : « وَلَيْكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ » والاستدراك هنا معناه أنه كان حقا عليهم أن يشكروا ، فاستدرك سبحانه على هذه النتيجة المنطقية وقرر أن أكثرهم عدلوا عنها وانحرفوا عن مسلكها إلى الضلال فكانوا لا يشكرون وجحدوا ، وكان التعبير بالمضارع ؛ لدوام عدم شكرهم وتكرر جحودهم وتجدهد آنا بعد آن .
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - يوم القيامة يوم الحسرة والندامة يود الكافر فيه لو افتدى نفسه من عذاب الله ولو بملء الأرض ذهباً ، ولكن الله الذى يملك كل شىء ليس فى حاجة إلى فدائهم ، ولن يقبل شيئاً من أحد ؛ لأنه الغنى الحميد .

٢ - وعد الله حق ، وهو الذى يحى ويميت ، وهو القادر العليم الذى لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

٣ - القرآن العظيم نعمة كبرى أنعم الله بها على العالمين بما فيه من المواعظ والأحكام والتشريع والأوامر والنواهي وهو شفاء لما فى الصدور ، وبه تحصل الهداية والرحمة للمؤمنين المصدقين بما فيها .

٤ - الله يعلم كل ما يأتبه الإنسان من خير أو شر ، ولا يغيب عن علمه - تعالى - مثقال ذرة فى أرض أو سماء .

معانى الكلمات :

أولياء الله : الذين يتولونه بالطاعة ،
ويتولاهم بالكرامة .

البشرى : ما بشر به المتقون .

لا تبديل لكلمات الله : لا تغيير ولا إخلاف
لموعوده .

يخرون : يكذبون .

آيات : لعلامات .

سلطان : حجة وبرهان .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعلم أن ولاية الله بطاعته وموافقته في محابه ومكارهه .
- ٢ - أن نعرف أن الأولياء هم أهل الإيثار والتقوى لا أهل البدع والمنكرات .
- ٣ - أن نتدبر مظاهر قدرة الله - تعالى - في الخلق بغية أن يغمر الإيثار قلوبنا .

المحتوى التربوى :

تمضى الآيات في ظل الأنس الربانى ، وفي طمأنينة القرب من الله ، وتعلن إعلانها الجاهر : ﴿ الْآيَاتِ أُولِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ ، وكيف يخاف أولياء الله أو يحزنون والله معهم هكذا في كل شأن وفي كل عمل وفي كل حركة أو سكون ؟ وهم أولياء الله ، والمؤمنون به الأتقياء المراقبون له في السر والعلن ، كيف يخافون وكيف يحزنون ؟ وهم على اتصال بالله لأنهم أولياؤه وعلام يحزنون ومما يخافون ؟ والبشرى لهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ؟ إنه الوعد الحق الذى لا يتبدل - لا تبديل لكلمات الله .

ويقول صاحب الظلال : إن أولياء الله الذين يتحدث عنهم السياق هم المؤمنون حق الإيمان ، المتقون حق التقوى ، والإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل ، والعمل هو تنفيذ ما أمر الله به ، واجتناب ما نهى الله عنه . وهكذا يجب أن نفهم معنى الولاية لله - لا كما يفهمه العوام من أنهم المهبولون المخبولون الذين يدعونهم بالأولياء !

وفي ظل هذه الرعاية والحماية لأولياء الله يخاطب النبي ﷺ وهو أولى الأولياء ، بما يطمئنه تجاه المكذبين والمفتريين ، وكانوا في ذلك الوقت هم أصحاب القوة والجاه : ﴿ وَلَا تَحْزَنْكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

ويفرد الله بالعزة هنا ، ولا يضيفها إلى الرسول والمؤمنين - كما في الموضع الآخر ؛ لأن السياق سياق حماية الله لأوليائه فيفرده بالعزة جميعاً - وهى أصل الله وحده ، والرسول والمؤمنون يستمدونها منه - ليجرد منها الناس جميعاً - ومشركو قريش العتاة داخلون في الناس . أما الرسول ﷺ فهو في الحماية الإلهية التى أضفاها على أوليائه فلا يحزن لما يقولون ، والله معه وهو السميع العليم ، الذى يسمع قولهم ويعلم كيدهم ويحمى أوليائه مما يُقال ومما يكاد وفي ملك يده كل من في السموات وكل من في الأرض من إنس وجن وملائكة ومن عصاة وتقاة . فكل ذى قوة من خلقه داخل في سلطانه وملكه .

وهؤلاء الشركاء الموهومون ليسوا في حقيقتهم شركاء لله في شىء ؛ وعبادهم ليسوا على يقين مما يزعمون لهم من شركة . ويلفت السياق نظرهم إلى بعض مجالى القدرة في المشاهد الكونية التى يغفل عنها الناس بالتكرار : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ .

والافتراء على الله بالشركاء يكون بنسبة ولد لله - سبحانه - وقد كان مشركو العرب يزعمون أن الملائكة بنات الله ، وختام هذا الدرس جولة مع هذا النوع من الشرك والافتراء تبدأ بالحجة في الدنيا ، وتنتهى بالعذاب في الآخرة على طريقة القرآن . ﴿ مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴾ .

وعقيدة أن الله - سبحانه - له ولد ، عقيدة ساذجة ، منشؤها قصور في التصور ، يعجز عن إدراك الفارق الهائل بين الطبيعة الإلهية الأزلية الباقية ، والطبيعة البشرية المخلوقة الفانية ، والقصور كذلك عن إدراك حكمة السنة التى جرت بتوالد أبناء الفناء ، وهو التكملة الطبيعية لما فيهم من نقص وقصور لا يكونان لله .

فالبشر يموتون ، والحياة باقية إلى أجل معلوم ، فلما أن ينتضى هذا الأجل فحكمة الخالق تقتضى امتداد البشر ، والولد وسيلة لهذا الامتداد ، والبشر يهرمون ويشيخون فيضعفون ، والولد

تعويض عن القوة الشائخة بقوة فتية ، تؤدى دورها فى عبادة الأرض - كما شاء الله - وتعين الضعفاء والشيوخ على بقية الحياة . وليس شئ من ذلك كله متعلقا بالذات الإلهية . فلا الحاجة إلى الامتداد - ولا الحاجة إلى العون عند الشيخوخة ، ولا الحاجة إلى النصير ، ولا الحاجة إلى المال . ولا الحاجة إلى شئ مما يخطر على البال متعلقة بذات الله - تعالى .

ومن ثم كان الرد على فرية : ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴾ .. هو : ﴿ سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَفِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ثم يجبههم بالواقع ، وهو أنهم لا يملكون برهاناً على ما يدعون ، ويسمى البرهان سلطاناً ؛ لأن البرهان قوة ، وصاحب البرهان قوى ذو سلطان ، وهم ما عندهم من حجة ولا برهان على ما يقولون .

ومن ثم يقف الجميع سواء أمام الله وكلهم مخاطب بالشرعية ، وكلهم مكلف بها ، وكلهم حفيظ عليها ، وبذلك تستقيم العلاقات بين الناس بعضهم وبعض ؛ نتيجة استقامة العلاقة بينهم وبين الله .

﴿ قُلْ إِنِّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ ، لا يفلحون أى فلاح ، لا يفلحون فى شعب أو طريق ، لا يفلحون فى الدنيا ولا فى الآخرة . والفلاح الحقيقى هو الذى ينشأ من مسابقة سنن الله الصحيحة ، المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع ، وتنمية الحياة ودفعها إلى الأمام ، وليس هو مجرد الإنتاج المادى مع تحطيم القيم الإنسانية ، ومع انتكاس البشرية إلى أقصى الحيوانية . فذلك فلاح ظاهرى موقوت ، منحرف عن خط الرقى الذى يصل البشرية إلى أقصى ما تطيقه طبيعتها من الاكتمال .

ما ترشدنا إليه الآيات تربويّاً :

١ - من آمن بربه واتقاه صار من أهل طاعته ومن أوليائه الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون .

٢ - للكون سننه وقوانينه التى لا تتغير ولا تتبدل ، فمن اهتدى بها وصل ، لا تبديل لخلق الله .

٣ - العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، والله - تعالى - ناصر دينه ما نصره أهله .

٤ - لا تستقيم الحياة بالظن والهوى ، وإنما بالعلم الهادف والعمل الدائب .

٥ - علينا أن نتدبر ملكوت الله من ليل ونهار ، وفصول وزروع وأفلاك ؛ ليغمر الإيمان قلوبنا .

٦ - على المؤمن الداعى إلى الله ألا يجزئه أقوال أهل الباطل وأكاذيبهم حتى لا ينقطع عن دعوته ؛ وليعلم أن العزة لله جميعاً وسوف يعزه بها ، ويدل أعداءه .

معانى الكلمات :

اتل : اقرأ .

كبر عليك : عظم وشق عليك .

مقامى : إقامتى بينكم زمناً طويلاً .

غمة : ضيقاً شديداً .

اقضوا إلى : أدوا إلى ما تريدونه .

نطع : نختم .

ملته : قومه .

لتلفتنا : لتصرفنا وتردنا .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - بيان سوء عاقبة المكذبين بعد إنذارهم وتحذيرهم .
- ٢ - ذم الاستكبار وأن ندرك أنه سبب كثير من الظلم والإجرام .
- ٣ - أن نوقن أن السحر صاحبه لا يفلح أبداً ولا يفوز بمطلوب .

المحتوى التربوى :

تسوق الآيات طرفاً من قصة نوح عليه السلام مع قومه ، وطرفاً من قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملته ، لتحقيق فيها عاقبة التكذيب ، والقضاء فى أمر الأمة بعد مجئ رسولها ، وإبلاغها رسالته ، وتحذيرها عاقبة المخالفة .

وقد انتهى الدرس الماضى بتكليف الرسول ﷺ أن يعلن عاقبة الذين يفترون على الله الكذب وينسبون إليه شركاء ، ويواصل السياق بتكليف جديد : أن يقص عليهم ﷺ نبأ نوح فيما يختص بتحذيره لقومه ، ثم ما كان من نجاته ومن آمنوا معه واستخلاصهم فى الأرض ، وهلاك المكذبين وهم أقوى وأكثر عدداً .

والحلقة التى تعرض هنا من قصة نوح ، هى الحلقة الأخيرة : حلقة التحدى الأخير ، بعد الإنذار الطويل والتذكير الطويل ، والتكذيب الطويل ولا يذكر فى هذه الحلقة موضوع السفينة ، ولا من ركب فيها ولا الطوفان ؛ لأن الهدف هو إبراز التحدى والاستعانة بالله وحده ، ونجاة الرسول ومن معه وهم قلة ، وهلاك المكذبين له وهم كثرة وقوة .

فيقول نوح عليه السلام لقومه : إن كان الأمر بلغ منكم مبلغ الضيق ، فلم تعودوا تتحملون بقائى فيكم ودعوتى لكم ؛ وتذكيرى لكم بآيات الله ، فأنتم وما تريدون ، وأنا ماض فى طريقى ودعوتى لا أعتد إلا على الله . ﴿ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ عليه وحده فهو حسبى دون النصراء والأولياء . فتدبروا مصادر أمركم وموارده ، وخذوا أهبتكم متضامنين ، وليكن الموقف واضحاً فى نفوسكم ، وما تعتزمونه مقرر لا لبس فيه ولا غموض ولا تردد ، ونفذوا ما اعترتم بشأنى وما دبترتم ولا تمهلونى للأهبة والاستعداد ، فكل استعدادى ، هو اعتمادى على الله وحده دون سواه .

يقول صاحب الظلال : إنه التحدى الصريح المثير ، الذى لا يقوله القائل إلا وهو مالى يديه من قوته ، واثق كل الثقة من عدته ؛ حتى ليغرى خصومه بنفسه ويحرضهم بمثيرات القول على أن يهاجموه ! فماذا كان وراء نوح عليه السلام من القوة والعدة ؟ وماذا كان معه من قوى الأرض جميعاً ؟ كان معه الإيمان .. القوة التى تتصاغر أمامها القوى ، وتتضاءل أمامها الكثرة ، ويعجز أمامها التدبير ، وكان وراءه الله الذى لا يدع أولياءه لأولياء الشيطان !

إنه الإيمان بالله وحده ذلك الذى يصل صاحبه بمصدر القوة الكبرى المسيطرة على هذا الكون بما فيه ومن فيه . فليس هذا التحدى غروراً ، وليس كذلك تهوراً ، وليس انتحاراً ، إنما هو تحدى القوة الحقيقية الكبرى للقوى الهزيلة الفانية التى تتضاءل وتتصاغر أمام أصحاب الإيمان .

وأصحاب الدعوة إلى الله لهم أسوة حسنة فى رسل الله ، وإنه لينبغى لهم أن تمتلئ قلوبهم بالثقة حتى تفيض . وإن لهم أن يتوكلوا على الله وحده فى وجه الطاغوت أياً كان ! ولن يضرهم الطاغوت إلا أذى - ابتلاء من الله لا عجزاً منه - سبحانه - عن نصرته أوليائه ، ولا تركاً لهم ليسلمهم إلى أعدائه ، ولكنه الابتلاء الذى يمحص القلوب والصفوف ، ثم تعود الكرة للمؤمنين - ويحق وعد الله لهم بالنصر والتمكين .

ثم يخاطبهم قائلاً : إن أعرضتم عنى وابتعدتم ، فأنتم وشأنكم ، فما كنت أسألكم أجراً على الهداية ، فينقص أجرى بتوليكم ، ولن يرحزنى هذا عن عقيدتى ، فقد أمرت أن أسلم نفسى كلها لله ، وكانت العاقبة نجاته هو ومن معه فى الفلك - وهم المؤمنون - واستخلافهم فى الأرض

على قلتهم ، وإغراق المكذبين على قوتهم وكثرتهم . لينظر من ينظر : ﴿ عَقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ ﴾ المكذبين وليتعض من يتعض بعاقبة المؤمنين الناجين .

هذه سنة الله فى الأرض ، وهذا وعده لأوليائه فيها ، فإذا طال الطريق على العصابة المؤمنة مرة ، فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق ، وأن تستيقن أن العاقبة والاستخلاف للمؤمنين ، وألا تستعجل وعد الله حتى يحىء وهى ماضية فى الطريق ، والله لا يترك أولياءه - سبحانه - ولا يعجز عن نصرهم بقوته ، ولا يسلمهم كذلك لأعدائه ولكن يعلمهم ويدبرهم ويزودهم فى الابتلاء بزيادة الطريق .

فأما قصة موسى فيبدوها السياق هنا من مرحلة التكذيب والتحدى ، وينتهيها عند غرق فرعون وجنوده على نطاق أوسع مما فى قصة نوح عليه السلام .

والحلقة المعروضة هنا من القصة ، مقسمة إلى خمسة مواقف ؛ يليها تعقيب يتضمن العبرة من عرضها فى السورة على النحو الذى عرضت به .

والآيات التى بعث بها موسى إلى فرعون وملئه هى الآيات التسع المذكورة فى سورة الأعراف ، وكان ردهم ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴾ و ﴿ قَالُوا إِن هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

واستنكر عليهم موسى هذا الفهم للحق الذى جاءهم من عند الله ؛ لأن السحر لا يستهدف هداية الناس ، ولا يتضمن عقيدة ولا يتضمن منهاجاً تنظيمياً للحياة . فما يختلط السحر بهذا ولا يلتبس ، وهنا يكشف الملام عن حقيقة الدوافع التى تصدهم عن التسليم بآيات الله : ﴿ قَالُوا أَجِئْنَا لِنُلْفِتَنَّا عَنْ مَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ .
ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - الإسلام هو دين الأنبياء جميعاً من أولهم إلى آخرهم ، وإن تنوعت شرائعهم ، وتعددت مناهجهم .

٢ - إذا اختار الإنسان الكفر طبع الله على قلبه ، فلا يصل إليه نور الإيمان .

٣ - ثمرة التوكل شجاعة واطمئنان نفس وصبر وتحمل مع مضاء عزيمة .

٤ - بيان سنة الله فى البشر ، وهى أن التهادى فى الشر والفساد والظلم يوجب الختم على القلوب ، فيحرم العبد الإيمان والهداية .

٥ - تقرير أن السحر صاحبه لا يفلح أبداً ولا يفوز بمطلوب ولا ينجو من مرهوب .

معانى الكلمات :

ألقوا : رموا جباهم وعصيهم على الأرض .

سيطله : سيمحقه .

ذرية : طائفة .

عال : متكبر .

أن نبوءا لقومكما : أن اتخذوا وجعلاهم .

اطمس على أموالهم : أهلكها .

أشدد على قلوبهم : اطبع عليهم .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نتوكل على الله فى كل أمورنا لتحمل عبء الدعوة إلى الله والقيام بطاعته .

٢ - بيان مشروعية التوسل إلى الله - تعالى - بأسمائه وصفاته .

٣ - أن نستعين بالصبر والصلاة عند الشدائد وفى كل الأحوال .

المحتوى التربوى :

يمضى السياق مع أحداث قصة موسى عليه السلام مع فرعون وملئه وتعلقهم بحكاية السحر ، وأرادوا - فى أغلب الظن - أن يغرقوا الجماهير بها ؛ بأن يعقدوا حلقة للسحرة يتحدثون بها موسى وما معه من آيات تشبه السحر فى ظاهرها ؛ ليخرجوا منها فى النهاية بأن موسى ليس إلا ساحراً ماهراً فبطل دعوته ، وبذلك ينتهى الخطر الذى يخشونه على معتقداتهم الموروثة .

ونلاحظ فى الآيات هنا اختصاراً فى موقف المباراة ؛ لأن نهايتها هى المقصودة ، وفى قول موسى : ﴿ مَا جِئْتُ بِهِ بِالسِّحْرِ ﴾ .. رد على تهمة السحر التى وجهت إليه ، فالسحر هذا الذى يصنعه هؤلاء ، وتتجلى ثقة المؤمن الواصل بربه ، المطمئن إلى أن ربه لا يرضى أن ينجح السحر وهو

عمل غير صالح ، وقد كان ، وبطل السحر وعلا الحق . ولكن السياق يختصر المشاهد هنا ؛ لأنها ليست مقصودة في هذا المجال .

وهنا يبدأ فاصل جديد من القصة يرفع فيه الستار على فئة قليلة : ﴿ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ ﴾ آمنت معه الله رب العالمين ، ويقول صاحب الأساس : إن للمفسرين في هذا قولين : فعلى القول الأول يكون المراد - والله أعلم - أن الذين آمنوا لموسى ، وتحمسوا له ، وأظهروا هذا الإيمان هم الشباب من قومه ، وإن كان كل بنى إسرائيل قد آمنوا لموسى نوع إيمان ، وعلى القول الثانى : يكون الذين آمنوا بموسى من قوم فرعون هم طائفة الشباب - كمؤمن آل فرعون التى تمر قصته فى سورة غافر .

ويقول صاحب الظلال : يلاحظ من قوله - تعالى : ﴿ فَمَاءٌ آمِنٌ لِّمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةً مِّن قَوْمِهِ ﴾ أن الذين يستجيبون للدعوات الإصلاحية هم الشباب ؛ لسلامة فطرتهم ، فنفس الشباب أقرب لأن تقبل الحق ، ومن ثم فعلى أصحاب الحق أن يدركوا معنى النصرة ، وألا يتطلعوا إلى أجيال ليست مرشحة لأن تفعل شيئاً ؛ لأنها تجاوزت دور الفاعلية ، على أن صاحب الدعوة عليه أن يبلغ دعوته للجميع .

يقول صاحب الأساس : وقال موسى : يا قوم إن كنتم آمتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين هذا دليل على أنه لم يكن فى بنى إسرائيل إلا مؤمن وفى هذا درس عظيم ، فبدون التوكل على الله لا تستطيع أمة ولا جماعة ، ولا فرد أن تحقق هدفاً يفرضه الإسلام ، أو تتخلص من أوضاع ظالمة ، وقد امثل بنو إسرائيل ذلك ﴿ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ وتوجهوا إلى الله بالدعاء ﴿ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّقَوْمٍ الظَّالِمِينَ ﴾ أى لا تظهرهم علينا فيظنوا أنهم على الحق ولا تظهرهم بنا ولا تسلطهم علينا ؛ لأنهم على الحق ونحن على الباطل ، وهناك تفسير آخر لمجاهد وهو : لا تسلطهم علينا فيفتنونا ، ودعوا دعوة أخرى ﴿ وَجَعَلْنَا بَرَحْمِلَكَ ﴾ أى وخلصنا برحمة منك وإحسان ﴿ مِّنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ أى الذين كفروا الحق وستره ، ودعوا بالعافية والنجاة وهكذا المؤمن كثير الإشفاق ، راغب بفضل الله ، حريص على العافية ، يطلبها من الله ، وإذا وضعه الله فى ظرف قام بأدب الوقت فيه ، من صبر أو تحمل أو قتال ، أو مقابلة بمثل .

والقرآن بين العبادة والتوكل يفيد أنها مرتبطان ببعضها ، فمن لا عبادة له لا توكل له ، ومن ثم فإن الدعوة والمصلحين والمريين عليهم أن يعلقوا قلوب أتباعهم بالعبادة ؛ ويقودوهم عليها ليتحققوا بالتوكل ليستطيعوا تحمل أعباء مراحل الحياة وما فيها .

وينتقل السياق لتوجيه موسى عليه السلام إلى التعبئة الروحية إلى جوار التعبئة النظامية ويقول صاحب الظلال : وهما معاً ضرورتان للأفراد والجماعات ، وبخاصة قبيل المعارك والمشقات ،

ولقد يستهين قوم بهذه التعبئة الروحية ، ولكن التجارب ما تزال إلى هذه اللحظة تنبئ بأن العقيدة هى السلاح الأول فى المعركة ، وأن الأداة الحربية فى يد الجندى الخائر العقيدة لا تساوى شيئاً فى ساعة الشدة .

ويقول صاحب الأساس بمناسبة هذه الآيات : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا ﴾ أن هذه الآية فيها الكثير من فقه الدعوة ، فعلى القول الأول فى تفسير القبلية : نفهم أن البيوت تنوب مناب الأماكن العامة ، إذا حيل بين الدعوة وهذه الأماكن ، فمثلاً فى كثير من بلدان العالم الإسلامى - وخاصة البلدان التى خضعت للأنظمة الشيوعية - نجد كلمة الحق محظورة فى المسجد ، ومضيقاً عليها ، حتى حلقات العلم يحال دونها ، وفى مثل هذا الطرف فالبيوت تقوم مقام المساجد ، والدور العامة ، ولكن لا ننسى أن المساجد هى معازل الإسلام ، فلا نتخل عنها إلا كتخليتنا عن معقل أو حصن ، وإلا فالأصل أن نحى المسجد ورسائله ، وإننا هى حالة اضطرار كما هنا ، وهى ترسم الطريق لكل حالة مشابهة .

وهذه التجربة التى يعرضها الله على العصابة المؤمنة ؛ ليكون لها أسوة ليست خاصة لبنى إسرائيل ، فهى إيمانية خالصة ، وقد يجد المؤمنون أنفسهم ذات يوم مطاردين فى المجتمع الجاهلى ، وقد عمّت الفتنة وتجرّ الطاغوت ، وفسد الناس ، وأنتنت البيئة وكذلك كان الحال على عهد فرعون فى هذه الفترة .

يقول صاحب الظلال - بتصرف : فى دعاء موسى عليه السلام على قومه لفته للدعاة بأن كثيراً من إضلال الناس عن الله يكون بالإغراء الذى يحدّثه مظهر النعمة فى نفوس الآخرين ، وإما بالقوة التى يمنحها المال لأصحابه فيجعلهم قادرين على إذلال الآخرين أو إغوائهم ووجود النعمة فى أيدى المفسدين يزعزع كثيراً من القلوب التى لا يبلغ من يقينها بالله أن تدرك أن هذه النعمة ابتلاء واختبار ، فيطلب موسى عليه السلام لوقف هذا الإضلال أن يطمس الله على هذه الأموال بتدميرها والذهاب بها .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - وجوب التوكل على الله - تعالى - لتحمل عبء الدعوة إلى الله - تعالى - والقيام بطاعته .

٢ - مشروعية الدعاء والتوسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته .

٣ - الاستعانة بالصبر والصلاة عند الشدائد ، والحذر من فتنة الأموال وزينة الحياة الدنيا .

٤ - جواز الصلاة فى البيوت عند الضرورة (فى تشريع من سبقنا وفى الشريعة الإسلامية

كذلك) .

٥ - ثقة أهل الحق في أنفسهم ، وثقتهم في نصر الله لهم ، وأن الباطل لا أساس له ولا ثبات .

معانى الكلمات :

سبيل : طريق .

أتبعهم : لحقهم .

بغياً وعدوا : ظلماً واعتداءً .

آية : عبرة ونكالا .

بوأنا : أنزلنا وأسكنا .

مبوا صدق : منزلاً صالحاً مرضياً .

المتمرين : الشاكرين ، المضطربين .

حققت : وجبت .

كلمة ربك : بالعذاب .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن نجدد التوبة لله - دائماً - قبل فوات الأوان .

٢ - أن نتحرى الكتاب والسنة في كل قول وعمل ونحذر طرق أهل الضلال .

٣ - بيان حرمة الاختلاف في الدين والتأكيد على وحدة الصف والارتباط بوشائج المحبة في الدين .

المحتوى التربوى :

يواصل السياق الحديث عن قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، وقد اتجه موسى إلى ربه ، وقد يشس من فرعون وملئه أن يكون فيهم خير ، وأن تكون قد بقيت فيهم بقية ، وأن يرجى لهم صلاح . اتجه إليه يدعو على فرعون وملئه الذين يملكون المال والزينة للذين تضعف إزاءهما قلوب الكافرين فتنتهى إلى التهاوى أمام الجاه والمال ، فاتجه موسى إلى ربه يدعو أن يدمر هذه الأموال ، وأن يشدد على قلوب أهلها فلا يؤمنوا إلا حيث لا ينفعهم إيمان . فاستجاب الله الدعاء وقضى الأمر .

ويأتى المشهد التالى بعد الدعاء وهو مشهد التنفيذ وكما يقول صاحب الظلال : إنه الموقف الحاسم والمشهد الأخير فى قصة التحدى والتكذيب ، وفيه بيان رعاية الله وحايته لأوليائه ، وإنزال العذاب والهلاك بأعدائه ، الذين يغفلون عن آياته الكونية ، وآياته مع رسله حتى تأخذهم الآية التى لا ينفذ بعدها ندم ولا توبة ، ويصور المشهد صورة البغى والعدو ، ومنها مباشرة إلى مشهد الغرق فى ومضة ومعاناة الموت ، فلقد سقط عن فرعون الباغى العادى المتجبر الطاغى . كل أرديته التى تنفخ فيه فتظهره لقومه ولنفسه قوة هائلة مخيفة ، ولقد تضاعف وتصاغر واستخذى فهو لا يكتفى بأن يعلن إيمانه بأن لا إله إلا الذى آمنت به بنو إسرائيل . فيزيد فى استسلام : وقال : ﴿ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ المسلمین !

وهنا لطيفة أوردها صاحب الأساس فى التفسير بمناسبة قول فرعون عند الغرق والرد عليه : ﴿ أَلَمْ نَقُلْ لَهُ إِذْ كُنَّا نُرِيهِ كَارِهُنَّ أَتَىٰ يَوْمَ الْآزْمَةِ ﴾ قال : قال الألوسى : والقائل له ذلك قيل : هو الله - تعالى ، وقيل : هو جبريل عليه السلام ، وقيل : إنه ميكائيل عليه السلام ، فقد أخرج أبو الشيخ عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : قال لى جبريل عليه السلام : ما أبغضت شيئاً من خلق الله - تعالى - ما أبغضت إبليس يوم أمر بالسجود فأبى أن يسجد ، وما أبغضت شيئاً أشد بغضاً من فرعون ، فلما كان يوم الغرق خفت أن يعتصم بكلمة الإخلاص فينجو ، فأخذت قبضة من حاة فضربت بها فى فيه ، فوجدت الله تعالى عليه أشد غضباً منى ، فأمر ميكائيل فأتاه فقال الآن وعن ابن عباس رضى الله عنها - قال : « قال رسول الله ﷺ قال لى جبريل : لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر ، فأدسه فى فى فرعون مخافة أن تدركه الرحمة » .

إن إساءة فرعون وعتوه قد بلغت مبلغاً جسيماً استحق به ما فعله به جبريل .

ويسدل الستار على المشهد النهائى فى المأساة . مأساة البغى والفساد والتحدى والعصيان ، ويعقب السياق بلمحة سريعة عن مآل بنى إسرائيل بعدها ، تستغرق ما حدث فى أجيال ، فلقد بوأهم الله مبعأ صدق ، ولما كان المقام هنا مقام نصره الإيوان وخذلان الطغيان ؛ فإن السياق لا يطيل فى عرض ما وقع بعد ذلك من بنى إسرائيل .

بعد ذلك يحىء التعقيب على هذه الخاتمة لقصة موسى وقصة نوح من قبلها ، يبدأ خطاباً إلى الرسول ﷺ تهيئةً بما حدث للرسول قبله ، وبياناً لعلة تكذيب قومه له أن ليس ما ينقصهم هو الآيات والبيانات ، إنها هى سنة الله فى المكذبين من قبلهم ، وسنة الله فى خلق الإنسان باستعداداته للخير والشر والهدى والضلال .

وفى الطريق يلم الإمامة سريعة بقصة يونس وإيوان قومه به بعد أن كاد العذاب ينزل بهم ؛ فرد عنهم لعل فيها حافزاً للمكذبين قبل فوات الأوان ، وينتهى بالخلاصة المستفادة من ذلك

القصص كله . أن سنة الله التى مضت فى الأولين ماضية فى الآخرين: عذاب وهلاك للمكذبين . ونجاة وخلاص للرسول ومن معهم من المؤمنين - حقاً كتبه الله على نفسه ، وجعله سنة ماضية لا تتخلف ولا تحيد .

لقد كان آخر الحديث عن بنى إسرائيل ، وهم من أهل الكتاب ، وهم يعرفون قصة نوح مع قومه وقصة موسى مع فرعون ، يقرؤونها فى كتابهم . فهنا يتوجه الخطاب إلى الرسول ﷺ إن كان فى شك مما أنزل إليه من هذا القصص أو غيره ، فليسأل الذين يقرؤون الكتاب من قبله . فلديهم عنه علم ، مما يقرؤون .

ولكن الرسول ﷺ لم يكن فى شك مما أنزل الله إليه . أو كما روى عنه ﷺ لا أشك ولا أسأل ففيم إذن هذا القول له أن يسأل إن كان فى شك والتعقيب عليه: ﴿ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ﴾ وفى هذا ما يكفيه لليقين ؟

فى قوله تعالى: ﴿ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ ﴾ يقول الشيخ أبو زهرة: « الشك هو الضيق ، ثم أطلق على التردد بين اليقين والإنكار ، لأنه يحدث فى النفس ضيقاً » .

ولكن هذا التوجيه كما يقول صاحب الظلال : يشى بما كان وراءه من شدة الموقف وتأزمه فى مكة بعد حادث الإسراء ، وقد ارتد بعض من أسلموا لعدم تصديقه . وبعد موت خديجة وأبى طالب ، واشتد الأذى على رسول الله ﷺ ومن معه ؛ وبعد تجمد الدعوة تقريباً فى مكة بسبب موقف قريش العنيد ، وكل هذه ملابسات تلقى ظلالها على قلب رسول الله ﷺ فيسرى عنه ربه بهذا التوكيد ، بعد ذلك القصص الموحى .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

١ - دعاء الرسل على أقوامهم كان غضباً لله ولدينه ، ولم يكن يأساً ولا انتقاماً لأنفسهم .

٢ - لا يقبل الله توبة الذين لا يتوبون إلا عند خروج الروح ، أو بعد ظهور علامات الساعة الكبرى .

٣ - مشروعية الدعاء بالهلاك على أهل الظلم .

٤ - حرمة اتباع طرق أهل الضلال ، وتقليد الجهال والسير وراءهم .

٥ - حرمة الاختلاف فى الدين إذا كان يؤدى إلى الانقسام والتعادى والتحارب .

٦ - فضل لا إله إلا الله ، فقد ورد أن جبريل كان يحول بين فرعون وبين أن يقولها فينجو فلم يقلها فغرق وكان من الهالكين .

معانى الكلمات :

- إلا قوم يونس : لكن قوم يونس .
 إلى حين : إلى وقت انقضاء آجالهم .
 يجعل الرجز : يجعل العذاب .
 النذر : جميع نذير أى الرسل .
 خلوا من قبلهم : مضوا من الأمم .
 حنيفاً : مانئاً عن الأديان الباطلة .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

- ١ - أن نعرف أن سنن الله لا تتبدل ولا تتغير ولا تحابى أحداً .
- ٢ - أن نوقن أن الله - عز وجل - يهدى من يشاء من عباده ، ويضل من يشاء حسب علمه وحكمته وعذله .
- ٣ - أن نتفكر في نعم الله وآياته فإن ذلك مما يزيد الإيـمان .

المحتوى التربوى :

كما عرضت الآيات سنن الله العامة في هلاك الأمم التى لم ينفعها إيمانها ؛ لأنها آمنت بعد وقوع العذاب فلم يأت عن اختيار ، يعرض هنا في هذه الآيات نموذجاً لقرية نفعها إيمانها وهى قرية يونس عليه السلام والآية تشير إلى أن قوم يونس كان يتهددهم عذاب مخز ، فلما آمنوا قبل وقوع العذاب كشفه الله عنهم ، وتركوا يتمتعون بالحياة إلى أجل ، ولو لم يؤمنوا لحل العذاب بهم - وفقاً لسنة الله المترتبة آثارها على تصرفات خلقه .

ويقول صاحب الظلال : حسبنا هنا أن ندرك أمرين مهمين :

أولهما : الإهابة بالمكذبين أن يتعلقوا بخيوط النجاة الأخيرة ، فلعلهم ناجون كما نجا قوم يونس من عذاب الخرزى فى الحياة الدنيا ، وهو الغرض المباشر من سياق القصة هذا المساق .

وثانيهما : أن سنة الله لم تعطل ولم تقف بكشف هذا العذاب ، وترك قوم يونس يتمتعون فترة أخرى ، بل مضت ونفذت ؛ لأن مقتضى سنة الله كان أن يحل العذاب بهم لو أصروا على تكذيبهم حتى يجيء ، فلما عدلوا قبل مجيئه جرت السنة بإنجائهم نتيجة لهذا العدول ، فلا جبرية إذن فى تصرفات الناس ، ولكن الجبرية فى ترتيب آثارها عليها .

ومن ثم ترد القاعدة الكلية فى الكفر والإيمان ، وهى أن الله - عز وجل - لو شاء لخلق هذا الجنس البشرى خلقه أخرى ، فجعله لا يعرف إلا طريقاً واحداً وهو طريق الإيمان - كالملائكة مثلاً ، أو لجعل له استعداداً واحداً يقود جميع أفرادها إلى الإيمان ، ولو شاء كذلك لأجبر الناس جميعاً وقهرهم عليه ، حتى لا تكون لهم إرادة فى اختياره ولكن الإيمان متروك للاختيار ، لا يكره الرسول عليه أحداً ، لأنه لا مجال للإكراه فى مشاعر القلب وتوجهات الضمير ﴿ أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ ؟ .

وهو سؤال للإنكار ، فإن هذا الإكراه لا يكون ، ويطرح السياق قضية أخرى ثابتة من سنن الله العامة وهى ﴿ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ وفق سننه الماضية التى بينها ، فلا تصل إلى الإيمان وقد سارت فى الطريق الآخر الذى لا يؤدى إليه ؛ لأنها تريد الإيمان وتسلك طريقه ثم تمنع عنه ، فهذا ليس المقصود بالنص ، بل المقصود أنها لا تصل إلى الإيمان إلا إذا سارت وفق إذن الله وسنته فى الوصول إليه من طريقه المرسوم بالسنة العامة . وعندئذ يهديها الله ويقع لها الإيمان بإذنه .

ويدل على هذا عقب الآية فالذين عطلوا عقولهم عن التدبر ، يجعل الرجز عليهم والرجس أبشع الدنس الروحى ، فهؤلاء يناهم ذلك الرجز بسبب تعطيلهم لمداركهم عن التعقل والتدبر ، وانتهاؤهم بهذا إلى التكذيب والكفران ، ويزيد الأمر إيضاحاً بأن الآيات والنذر لا تُغنى عن الذين لا يؤمنون ؛ لأنهم لا يتدبرونها وهى معروضة أمامهم فى السموات والأرض .

ويقول صاحب الظلال : إن النظر إلى ما فى السموات والأرض يمد القلب والعقل بزاد من المشاعر والتأملات ؛ زاد من الاستجابات والتأثرات ؛ وزاد من سعة الشعور بالوجود ؛ وزاد من التعاطف مع هذا الوجود ، وذلك كله فى الطريق إلى امتلاء الكينونة البشرية بالإيقاعات الكونية الموحية بوجود الله ، وبجلال الله ، وتبدير الله ، وبسلطان الله ، وبحكمة الله ، وعلم الله .

ولكن ماذا تجدى الآيات والنذر إذا استغفلت القلوب ، وتجمدت العقول ، وتعطلت أجهزة الاستقبال والتلقى فى الفطرة ؛ واحتجب الكائن الإنسانى بجملته عن هذا الوجود ، فلم يسمع إيقاعات حمده وتسبيحه ؟ !

ولفت الحس والقلب والعقل للنظر إلى ما فى السموات والأرض ، وسيلة من وسائل المنهج القرآنى لاستحياء القلب الإنسانى ؛ لعله ينبض ويتحرك ، ويتلقى ويستجيب ، ولكن أولئك المكذبين من الجاهلين العرب - وأمثالهم - لا يتدبرون ولا يستجيون . فماذا ينتظرون ؟

إن سنة الله لا تتخلف ، وعاقبة المكذبين معروفة ، وليس لهم أن يتوقعوا من سنة الله أن تتخلف ، وقد ينظروهم الله فلا يأخذهم بعذاب الاستتصال ، ولكن الذين يصرون على التكذيب لا بد لهم من النكال ، وعلى الطرف الآخر تبقى البذرة المؤمنة وتنجو بعد كل إيذاء وكل خطر ، وبعد كل تكذيب وكل تعذيب ، وتأتى خاتمة السورة بتكليف من الله - عز وجل - لرسوله ﷺ أن يعلن القواعد الرئيسية للعقيدة والتي دار حولها سياق السورة كلها ، وسيقت القصص لإيضاحها ، وضربت الأمثال لبيانها . وأمره أن يعلنها للناس إعلاناً عاماً ، وأن يلقي إليهم بالكلمة الأخيرة الحاسمة : أنه ماضٍ فى خطته ، مستقيم على طريقته ، حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين .

ومن الحكاية إلى الأمر المباشر بأمره أن يقيم وجهه للدين حنيفاً متوجهاً إليه خالصاً له ، وينهاه عن الشرك ويأمره ألا يدعو من دون الله ما لا ينفعه ولا يضره من هؤلاء الشركاء والشفعاء ، الذين يدعوهم المشركون لجلب النفع ودفع الضر ؛ لأنه إن فعل ذلك فهو إذن من هؤلاء المشركين ! فميزان الله لا يحاىى وعدله لا يلين .

ما ترشدنا إليه الآيات تربوياً :

- ١ - من حكمة الله - تعالى - أنه جعل الإنسان حراً مختاراً ؛ ليكون إما كافراً وإما مؤمناً .
- ٢ - الله - سبحانه وتعالى - يهدى من يشاء من عباده ، ويضل من يشاء حسب علمه وحكمته وعدله ، ولكنه لا يحاسب الناس إلا على ما عملوا من خير أو شر ، وإيمان أو كفر .
- ٣ - ضرورة التفكير فى نعم الله ، ودلائل قدرته من مطر ، وثمار ، وزروع ، وأزاهير ، وغير ذلك مما يقوى الإيمان .
- ٤ - لا إيمان إلا بإذن الله وقضائه ، فلذا لا ينبغي للداعى أن يحزن على عدم إيمان الناس إذا دعاهم ولم يؤمنوا ؛ لأن الله كتب عذابهم أزلاً وقضى به .
- ٥ - على المؤمن ألا يترك الحق مهما شك وشكك فيه الناس .
- ٦ - لا يؤمن عبد حتى يوقن أن ما أراده الله له من خير أو شر لا يستطيع أحد دفعه ولا تحويله بحال من الأحوال .

معانى الكلمات :

إن يمسسك : وإن يصيبك .

بوكيل : بحفيظ .

أحكمت آياته : نظمت .

فصلت : فرقت فى التنزيل بالحكمة ولم
تنزل جملة واحدة .

من لدن : من عند .

أجل مسمى : الموت .

يشنون صدورهم : يطونها على الكفر
والعداوة .

ليستخفوا منه : جهلاً منهم باطلاعه
عليهم .

يستغشون ثيابهم : يتغطون بها مبالغة فى
الاستخفاء .



الأهداف الإجرائية والسلوكية :

١ - أن يوقن المسلم أن الخير كله بيد الله ، وأن الضر ملازم لسنن الله الجارية حين يتعرض
الإنسان لأسبابه .

٢ - أن يتعهد المسلم نفسه بالاستغفار والتوبة ، فهما طريقان للحياة السعيدة والرزق الوفور
والأجر العظيم فى الآخرة .

٣ - أن يصنع المرء المعروف فى أهله وفى غير أهله ، فلن يضيع عند الله - تعالى .

المحتوى التربوى :

تواصل الآيات فى ختامها الحديث عن سنن الله الجارية ، وهى أن الضر ملازم لهذه السنن
حين يتعرض الإنسان لأسبابه والخير كذلك ، فإن مسك الله بضر عن طريق جريان سنته ، فلن
يكشفه عنك إنسان ، إنما يكشف باتباع سنته ، وترك الأسباب المؤدية إلى الضر - إن كانت
معلومة ، أو الالتجاء إلى الله ليهديك إلى تركها إن كانت مجهولة ، وإن أراد بك الخير ثمرة لعملك
وفق سنته ، فلن يرد هذا الفضل عنك أحد من خلقه فهذا الفضل يصيب من عباده من كانوا
يتصلون بأسبابه وفق مشيئته العامة وسنته الماضية ﴿ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ الذى يغفر ما مضى